التعليم الكنسي ونظرة واقعية لما لدينا، وما يمكن أن نقدِّمه للأجيال الآتية

مذكرة مقدمة لقداسة البابا
تواضروس الثاني بابا وبطريرك الكرازة المرقسية

من
د. جورج حبيب بباوي
مايو ٢٠١٣

www.coptology.org

صاحب القداسة،

المسيح قام. هذه هي تحية المحبة الصادقة الأمينة التي جعلتني أكتب لكم هذه السطور سائلاً لكم من الآب السماوي دوام نعمة الكهنوت لكي تنال الكنيسة بكم نعمةً سماويةً في زمان صعب شاء فيه التاريخ أن يفتح كل الملفات القديمة الخاصة بالشريعة والذمة وسفك دماء الأبرياء، وشهدنا نحن أكبر قدر من العدوان على الأشخاص والكنائس، وهجوم في الإعلام، وتحدٍّ لكل ما هو مقدس وعزيز علينا.

لقد سَرَت في قلبي نغمة الرجاء لِمَا صدر من قرار بعقد سيمينار خاص لمناقشة تطوير المعاهد الدينية والكليات الإكليريكية والمراكز الدراسية والبحثية المختلفة تحت رعايتكم في الفترة من ٢٤ إلى ٢٧ / ٦ / ٢٠١٣.

لذلك سوف تجدون قداستكم -رفق هذا- نص المذكرة التي سبق وأن قُدِّمَت لقداسة البابا شنودة الثالث في سبتمبر ١٩٨٢ مع حواشٍ أُضيفت لها من أجل التحديث. وقد تضمنت هذه المذكرة وصفاً عاماً لمحنة ومأساة التعليم الكنسي في الكنيسة القبطية. على أن ما يجب أن يشغلنا الآن هو التساؤل عن الآمال، والقدرات والإمكانيات التي لدينا التي تؤهلنا إلى أن نضع أقدامنا على طريق المستقبل؛ لأن المستقبل هو البُعد الغائب من الثقافة المصرية بشكل عام، بالرغم من أنه هو بالذات -المستقبل- ما تؤكد عليه أوشية الاجتماعات: "أنعم بها علينا ولعبيدك الآتين بعدنا الى الأبد".

كيف نهض التعليم الكنسي في الغرب؟ بل كيف استطاع الغرب أن يصل بالتعليم الجامعي إلى ما هو عليه الآن؟ ليس هذا بحثاً عويصاً؛ لأن أسس العمل في كل الجامعات هي:

- كتب دراسية Text Books
- مناهج ثابتة ومتطورة Curriculums
- أساتذة متفرغون.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، ولمجرد التأكيد على خطة نهوض التعليم الغربي، كان أول قاموس عبراني للعهد القديم صدر في المانيا ١٨٤٢ وقام به المستشرق H.F.W Gesenius وأتم مراجعته وإصلاح ما به من أخطاء مجموعة من الباحثين C. Briggs F.Brown , وصدرت الطبعة الأولى بعد هذه المراجعة في ١٩٠٦ ثم صدرت بعد ذلك أكبر حركة مراجعة في ١٤ مجلد، صدرت تباعاً باسم:

Theological Dictionary of the old Testament.

بالطبع وراء الكتب الدراسية جيل الأساتذة، ووراء جيل الأساتذة ثلاثة آليات هامة:

أولاً: المجلات البحثية الأكاديمية الخاصة بالأبحاث.

ثانياً: حرية البحث والحوار الأكاديمي بالأبحاث وحدها.

ثالثاً: الترحيب بالإصلاح والتجديد ومراجعة الأخطاء.

هذا ينطبق على قاموس العهد الجديد اليوناني، بل وعلى دراسات الآباء التي تطورت لمراجعة الجانب اللغوي، بعد أن توفر لدى الباحثين قاموس المصطلحات اليونانية للآباء A Patristic Greek Lexicon وهو بدوره في طريق الإصلاح والتجديد بواسطة الآليات الثلاث السابقة.

لا أريد هنا أن أقدم صورة مستحيلة صعبة؛ لأن جامعة كامبريدج التي وُلدت في القرن العاشر كانت كلية واحدة، أدارها عشرة رهبان فقط، ولكن حتى في العصر الوسيط كانت آليات التقديم هي:

- الكتب الدراسية.
- المناهج.
- الأساتذة.

لذلك اقترح بكل صدق وأمانة من أجل المستقبل:

أولاً: تشكيل لجنة للترجمة لوضع ثلاثة أنواع من الكتب الدراسية وهي:

- اللاهوت الأرثوذكسي.
- الكتاب المقدس.
- التاريخ الكنسي القبطي، والقانون الكنسي. (رجاء عدم الفصل).

اللاهوت الأرثوذكسي:

صدر كتاب اللاهوت العقيدي لأكبر لاهوتي من كنيسة رومانيا الأرثوذكسية وهو الأب Dumitruu Staniloae في خمسة أجزاء باللغة الانجليزية والألمانية.

اللاهوت المسيحي بشكل عام:

تُعد المجلدات الثلاثة للأستاذ Thomas C. Oden والتي صدرت باللغة الانجليزية بعنوان Systematic Theology هي أهم ما جاء في السنوات الماضية.

الكتاب المقدس:

نفس الأستاذ T.C. Oden هو المسؤل عن نشر تفاسير آباء الكنيسة بكل أسفار الكتاب المقدس صادر بعنوان Ancient Christian Commtary on Scripture وهي تغطي كل الأسفار من التكوين – الرؤيا. يوالي الأب ميشل نجم (أرثوذكسي) نشر هذه المجلدات بلبنان. وقد حضر الأستاذ Oden إلى القاهرة لنشر هذه السلسلة بالعربية ولم يجد التشجيع ولم يجد من يسمعه ... (هكذا قال لي).

التاريخ الكنسي:

يجب نشر كتاب تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع كاملاً ووضعه في يد القارئ، إضافةً إلى نشر مذكرات المتنيح الأنبا يؤانس عن تاريخ الكنيسة في العصر الإسلامي، والتي سبق أن دُرِّست في إكليريكية طنطا.

كذلك يجب مراجعة القانون الكنسي (المجموع الصفوي) ونشر كافة قوانين الآباء البطاركة ابتداء من العصر الإسلامي حتى العصر الحديث في مجلد واحد.

الأساتذة:

أرجو الإستعانة بالأخوة الحاصلين على درجات الماجستير والدكتوراه والمتخصصين في مركز دراسات الآباء بالقاهرة، على أن يقدم كل من هؤلاء في حالة الإستعانة به:

- البرنامج Currculum
- الكتب الدراسية.
- وأن يتم هذا في إطار خطة شاملة.
- نحن الآن نملك ولأول مرة منذ الفتح العربي مجموعة هامة من كتب الآباء:

الروح القدس:

- كتاب الروح القدس للقديس باسيليوس – ترجمة د. جورج حبيب بباوي
- رسائل القديس اثناسيوس إلى سرابيون عن الروح القدس – ترجمة د. جورج حبيب بباوي
- كتاب الروح القدس للقديس أمبروسيوس أسقف ميلان – ترجمة د. جورج حبيب بباوي
- وقد صدر أخيراً كتاب "الروح القدس" للعلامة ديديموس الضرير، وقد تُرجم إلى الانجليزية ونشره St. Vladimires Press.

الثالوث القدوس:

- كتاب القديس كيرلس الكبير – حوار حول الثالوث – تعريب د. جوزيف فلتس، وآخرون.
- كتاب الكنوز في الثالوث القدوس والمساوي – القديس كيرلس – ترجمة د. جورج عوض.

إلوهية الرب يسوع:

- المقالات الثلاثة ضد الأريوسيين للقديس أثناسيوس، وترجمة المقالة الأولى تحتاج إلى مراجعة شاملة.
- المسيح واحد للقديس كيرلس الكبير – ترجمة د. جورج حبيب بباوي.
- شرح تجسد الابن الوحيد، للقديس كيرلس الكبير – ترجمة د. جورج حبيب بباوي.
- رسائل القديس أثناسيوس إلى سرابيون وأدلفيوس وأبكتيتوس – ترجمة الأستاذ صموئيل كامل عبد السيد ود. نصحي عبد الشهيد.

- تجسد ربنا يسوع المسيح، للقديس أثناسيوس الرسولي – الكتاب الأول ضد أبوليناريوس – ترجمة د. جورج حبيب بباوي.
- ظهور المسيح المحيي، للقديس أثناسيوس الرسولي – الكتاب الثاني ضد أبوليناريوس – ترجمة د. جورج حبيب بباوي.
- حوار عن تأنس الابن الوحيد، للقديس كيرلس الكبير – ترجمة د. جورج عوض إبراهيم.

الكتاب المقدس:

- شرح إنجيل يوحنا للقديس كيرلس الكبير – ترجمة الدكتور نصحي عبد الشهيد وآخرون.
- تفسير إنجيل لوقا للقديس كيرلس الكبير – ترجمة د. نصحي عبد الشهيد.
- تفسير الرسالة إلى رومية، والرسالة إلى أفسس، والرسالة إلى العبرانيين للقديس يوحنا ذهبي الفم – ترجمة د. سعيد حكيم.
- كتاب السجود والعبادة بالروح والحق – للقديس كيرلس – ترجمة د. جورج عوض، وآخرون.
- الجلافيرا، أو التعليقات اللامعة – للقديس كيرلس – ترجمة مسلسلة في الكتاب الشهري لبيت التكريس للدكتور جورج عوض، نأمل تجميعها في مجلد واحد.

وغير ذلك كثير مما أخاف معه الخطأ في الحصر.

قداسة البابا:

بكل احترام ومحبة أسألكم أن تمد يد المعونة إلى الكلية الإكليريكية في القاهرة — القسم النهاري، وأن لا يُقام.أسقف للتعليم بالمرة، أو رسامة أسقف للكلية الإكليريكية، فهذا هو الوضع الأصيل الذي يجب أن يعود حتى ننجو من الخلط بين استرداد تراثنا

وحرية البحث، والسلطان الكهنوتي، مع بقاء قداسة البابا هو الرئيس الأعلى للكلية، وهو ما سبق وأن قُـرِّر في اللائحة الخاصة بالإكليريكية والتي نامت في درج مكتب الأنبا غريغوريوس، وبذلك تعود الإكليريكية إلى ما كانت عليه في زمان أستاذنا حبيب جرجس. والقمص ابراهيم عطية، يحكم العمل بها لائحة خاصة بها، وأن يكون لها مجلس أساتذة ومنهج ثابت وكتب دراسية.

ليس لديَّ ما يمنعني من المشاركة في أي حوار تراه قداستكم، ولعل قراءة المذكرة التي سبق وأن قُدِّمت إلى قداسة البابا شنودة الثالث تعطي لكم صورة لما حدث وما هو كائن عندنا.

أُقبِّل يديكم الكريمة، راجياً لكم من الثالوث القدوس كل قوة ومعونة؛ لأنكم تحمل مسئولية وتركة ثقيلة جداً. مع طلب صلواتكم

ابنكم

جورج حبيب بباوي

١١ مايو ٢٠١٣

الولايات المتحدة الأمريكية

ت: ٣١٧٨١٨١٤٨٨

العودة إلى تعليم آباء الكنيسة

تقرير مرفوع إلى

قداسة البابا المعظم الأنبا شنودة الثالث

من الدكتور جورج حبيب بباوي

قُدِّم هذا التقرير إلى قداسة البابا شنودة الثالث في سبتمبر ١٩٨٢، وتمت إضافة الحواشي الواردة فيه في مايو ٢٠١٣

صاحب القداسة والغبطة البابا المعظم الأنبا شنودة الثالث بكل خضوع واحترام الابن لأبيه الروحي أقبِّل يديكم الكريمتين راجياً صلواتكم عني.

قبل أن أغادر أرض الوطن للتدريس في جامعة برمنجهام (انجلترا)، أردت أن أرسل لقداستكم هذه الرسالة تحمل معها تحيتي المقرونة بالمحبة والاحترام، سائلاً لقداستكم المزيد من النشاط والقوة في خدمة الكنيسة.

لعل من أوائل احتياجات الخدمة المنوطة بقداستكم ومسؤلياتها الهامة، مستقبل التعليم الأرثوذكسي في الكنيسة القبطية ومصادره، بعبارة أخرى المراجع التي يجب أن نعتمد عليها، وضرورة وضع كتب لشرح العقيدة الأرثوذكسية وطقوس الكنيسة وتاريخها المجيد.

وسوف أعرض ما لديَّ من واقع حرصي الشديد على المؤسسات الكنسية: الكلية الاكليريكية – معهد الدراسات القبطية – واللجنة العليا لمدارس التربية الكنسية، وما يمكن أن تؤديه من دور بارز هام في بعث تعليم الآباء ومنهجهم الروحي والعقيدي والطقسي. وإذا أضع هذه الوديعة بين يدي قداستكم أسأل الله بنعمته أن يكون المستقبل حافلاً بالعمل الجاد المثمر، وان نرى مجلدات الآباء باللغة العربية بين يدي كل قارئ قبطي حتى تتحقق النهضة الروحية والكنسية التي نشتاق لها جميعاً.

وغاية هذه الرسالة – ليس هو تذكير قداستكم، فأنا واثق أنكم تدركون ذلك جيداً، وإنما هو التعبير عن أشواقي وشحذ الهمم للدراسة والتمسك بتعليم آباء الكنيسة الجامعة، لكي تقوى الحياة الروحية وتتكون لدينا رؤية أكثر وضوحاً لما يجب أن تكون عليه المؤسسات الكنسية التي ذكرتها.

وأرجو قبل أن أعبِّر عما بي من أشواق أن أؤكد لكم نقطة هامة، وهي أنكم ورثتم تركة مثقلة ومسئولية أثقل حينما سمح الله بتبوئكم كرسي مار مرقس الرسول. والحديث هنا ليس عن التقصير، وإنما هو عن المستقبل، ولذلك فإنني لست أنسب شيئاً من التقصير لقداستكم ولا لأي أحد من أساتذة الاكليريكية الذين كان لهم الفضل الأول في معرفتي بالإيمان، والذين أكن لهم كل تقدير واحترام ومحبة.

القسم الأول

الكلية الإكليريكية

الدراسة والمناهج والبحث واللائحة

قضت الكلية الاكليريكية ما يزيد على ٨٥ عاماً من رحلة حياتها العلمية في العصر الحديث. وقد حققت بلا شك بداية هامة، إلَّا أن الطريق طويل أمامها، وبشكل خاص في مجال الدراسة والمناهج والبحث. وإذا قمنا بالمقارنة بين ما أبدعته مدرسة الإسكندرية في القرون الخمسة الأولى وما حققته الاكليريكية، فإننا على الفور نلاحظ أن ما حققناه هو قليل جداً.

وأعتقد أن عدم وجود لائحة ولا مجلس أساتذة يطبق هذه اللائحة هو أحد المنافذ الأساسية لعدم التطور والتقدم. مجلس الأساتذة لا يجتمع بصفة دورية. ليس لنا منهج معروف يأخذ بعين الاعتبار مسألة تطوير الدراسة، والأدلة على ذلك كثيرة جداً:

في مجال العقيدة الأرثوذكسية:

لا يوجد لدينا كتاب دراسي واحد يشرح عقائد الكنيسة الكبرى مثل عقيدة الثالوث. بينما عرفت الكنيسة الجامعة في القرون الخمسة الأولى هذه الكتب عن الثالوث لكل من: نوفتيان – ماريوس فكتورنيوس – هيلاري أسقف بواتييه – كيرلس السكندري

– ديديموس الضرير – أوغسطينوس. ستة كتب كاملة بين أيدينا بلغاتها القديمة اليونانية واللاتينية مع ترجمة انجليزية أو فرنسية أو ألمانية[١].

هل قام أحد بتدريس أي من هذه الكتب في الإكليريكية؟ أم أننا سوف نكتفي بمحاضرات الأب الفرنسي الكاثوليكي اوجين دي بليس التي صار عمرها قرناً كاملاً والتي فيها أخطاء عقائدية وتاريخية، بل واتهامات لآباء الكنيسة الجامعة بأنهم لم يفهموا عقيدة الثالوث.

في مجال الطقوس الكنسية:

لا زالت الكنيسة القبطية هي الكنيسة الوحيدة التي لم تشرح قداسها للشعب. ولا يوجد لدينا كتاب واحد يشرح القداس الباسيلي –على سبيل المثال– بأسلوب تاريخي وروحي وعقيدي سليم[٢].

في مجال التاريخ الكنسي:

لا يدرس طلبة الاكليريكية المصادر التاريخية الأصلية القديمة مثل: يوسابيوس – سوزومين – سقراط – ثيؤدريت، بل حتى كتاب ساويروس ابن المقفع لم يدخل الكلية الاكليريكية مع أنه المرجع الوحيد الكامل لتاريخ البطاركة حتى نهاية القرن الحادي عشر.

---

(١) نلفت النظر إلى أننا نشرنا دراسةً عن الثالوث القدوس بعنوان حوار مع صديق عن الثالوث، أثناء قيامنا بالتدريس في الكلية الإكليريكية بطنطا والقاهرة. كما نشير إلى أن مركز دراسات الآباء بالقاهرة قام أخيراً بترجمة ونشر الحوار عن الثالوث للقديس كيرلس، وكذلك كتاب الكنوز في الثالوث القدوس والمساوي. ونوجه النظر إلى كتاب الأب صفرونيوس عن الثالوث بعنوان: الثالوث القدوس، توحيد وشركة وحياة، القاهرة، الطبعة الأولى، أبريل ٢٠١٠، والكتاب منشور على موقع www.coptology.com.

(٢) نشير هنا إلى محاضراتنا عن القداس الباسيلي التي ألقيناها على طلبة الكلية الإكليريكية بطنطا والقاهرة عام ١٩٧٧، والتي نشرتها أسرة القديس كيرلس عام ١٩٨٠. والكتاب منشور على موقع www.coptology.com.

في مجال الكتاب المقدس بعهديه:

لا زالت تفاسير الآباء وبشكل خاص آباء الإسكندرية مادة غير معروفة عندنا. ولا يزال الشعب بل وأغلب طلبة الاكليريكية يقرأ تفاسير البروتستانت مثل وليم باركلي – متى هنري. ولا تزال مجلة المراعي الخضراء وتفاسير سبرجن المعمداني هي المصدر الأساسي لشرح الكتاب المقدس عندنا.

في مجال القانون الكنسي:

هاجمنا المجموع الصفوي لابن العسال، ونقدناه بكل عنف دون أن نقدم البديل، ويكفي أن أذكر بكل ألم أن الكنيسة القبطية صارت الكنيسة الارثوذكسية الوحيدة في العالم الآن التي ليس لها كتاب مطبوع يضم القوانين الكنسية التي تقبلها الكنيسة القبطية.

مصادر التعليم في الكنيسة القبطية

نسوق بعض الأمثلة:

١– إذا نظرنا إلى موضوع الأسرار الكنسية، فإننا لم نتقدم خطوة واحدة عن النقطة التي توقف عندها أستاذنا الراحل الكريم حبيب جرجس الذي استطاع أن يقدم أول كتاب عن أسرار الكنيسة بعد كتاب عريان مفتاح. ولكنه اعتمد ونقل نقلاً كاملاً دون فحص أحياناً عن كتاب "الأنوار في الأسرار" لجراسيموس مسرة مطران اللاذقية للروم الأرثوذكس.

ونظراً لأن مادة آباء الكنيسة لم تكن معروفة في زمان الأستاذ حبيب جرجس، فإن الأسرار لم تدرس حسب تسليم الآباء. ويكفي أن أقول أن العبارات والفقرات الموجودة في كتاب الأستاذ حبيب جرجس من كتابات الآباء لا تعني أننا عرفنا كل ما قاله الآباء في موضوع الأسرار. ومع احترامنا الكامل للأستاذ حبيب جرجس وعلى

جهوده في عصره، فقد اعتمد على مقالة نشرتها الكنيسة الانجليكانية عن موضوع الكهنوت، الأمر الذي يدعو للغرابة؛ لأن هناك كتاب "الكهنوت" لذهبي الفم، وكتاب "رئاسة الكهنوت" للأريوباغي. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل كان الأستاذ حبيب جرجس على علم بهذه المصادر أم لا؟ وبالتالي، هل ما ذكره الأستاذ حبيب جرجس عن الكهنوت يعبِّر تعبيراً دقيقاً عن تراثنا الشرقي الأرثوذكسي؟

٢– لست أدري كيف درسنا لاهوت المسيح، أو لاهوت الروح القدس، وكل الموضوعات العقائدية المرتبطة بهذين الموضوعين.

لدينا الكتب الأربعة الخاصة بالروح القدس لكل من: أثناسيوس – ديديموس – باسيليوس – امبروسيوس. هذه الكتب لا تدرس في الاكليريكية، فكيف يمكن أن ندرس أي نقطة عقائدية خاصة بالروح القدس في غياب هذه المصادر[١].

٣– ما هي المراجع الآبائية أو غيرها التي اعتمدنا عليها في: اللاهوت العقيدي – اللاهوت المقارن – اللاهوت النظامي – اللاهوت النسكي أو الروحي.

أنا أعرف أن الحديث حساس، وربما فيه إحراج شديد، ولكن مستقبل التعليم في الكنيسة القبطية يجب أن يعلو على الحساسيات.

٤– ما هو مصدرنا الذي اعتمدنا عليه في تدريس وشرح عقيدة التجسد في الاكليريكية ولشعب الكنيسة؟ وكيف يمكن أن نشرح اتحاد اللاهوت بالناسوت دون الرجوع لكتابات الآباء من أمثال كيرلس السكندري وأثناسيوس وكلاهما المرجع الوحيد حتى عند آباء الكنيسة[٢]؟ هل عرفنا المقالات الأربع ضد نسطور – المسيح واحد[١] –

---

(١) نلفت النظر إلى أننا قمنا بترجمة ونشر الرسالة الخامسة عن التجديف على الروح القدس للقديس أثناسيوس، وفيما بعد استكمل مركز دراسات الآباء بالقاهرة ترجمة بقية الرسائل ونشرها، كما قمنا بترجمة ونشر كتاب الروح القدس للقديس باسيليوس، وكذلك كتاب الروح القدس لأمبروسيوس أسقف ميلان.

(٢) قمنا بترجمة ونشر كتاب شرح تجسد الابن الوحيد للقديس كيرلس عمود الدين، وأعدنا نشره في مجلد واحد مع دراستنا عن التجسد بعنوان حوار مع صديق عن التجسد. وقد نُشر الكتابان معاً في مجلد واحد، القاهرة، ١٩٩٧.

الإيمان الصحيح، وهي النصوص الأساسية التي قدمها لنا القديس كيرلس السكندري عن الايمان بالاتحاد؟

٥– ماذا نعرف عن الاتجاهات الفكرية التي ظهرت في القرن السادس عشر وما قبله في أوروبا لا سيما لاهوت الكنيسة الكاثوليكية وتعليمها؟ ماذا درسنا في الاكليريكية وماذا يُدرَّس الآن عن حقيقة تعاليم لوثر وكالفن وعن التعليم اللاهوتي الشائع في أوروبا في العصر الوسيط؟

أنا أعني أن تتكون لدينا المعرفة التاريخية والعلمية عن لوثر وكالفن وليس التراث الديني المسموع.

لست أظن بأن كتاب القمص ميخائيل مينا "علم اللاهوت" هو مرجع سليم عن تعاليم العصر الوسيط والكنائس الانجيلية؛ لأن كاتب هذا الكتاب لم يقرأ كتاباً واحداً لمارتن لوثر أو يوحنا كالفن، بل نقل عن كتاب الأب فغالي الكاثوليكي "علم اللاهوت"، أما الأب فغالي، فقد اعتمد على المراجع الكاثوليكية الشعبية التي لم تتحرَ الحقائق التاريخية.

٦– إذا أردنا أن نناقش بطريقة علمية أو تاريخية دقيقة الجدل الديني في أوروبا في القرن السادس عشر المعروف باسم حركة الإصلاح، فلابد من الرجوع إلى كتابات هؤلاء، لأن تطور تاريخ الكنائس البروتستانتية يؤكد أن بروتستانت مصر ليس لديهم صلة بتعليم الكنيسة اللوثرية. وأنا على يقين أن دراسة مارتن لوثر وكالفن سوف تفتح آفاق كسب كثير أمام الكنيسة القبطية.

---

(١) قمنا بترجمة هذا الكتاب ونشره مركز دراسات الآباء في يناير ١٩٨٧.

القسم الثاني

حقيقة الاختلافات اللاهوتية التي شاعت في أيامنا

كان من الممكن أن لا ينفجر أي خلاف لاهوتي عندنا إذا اتبعنا ما هو معمولٌ به في كل كنائس العالم، ذلك أن كنائس الدنيا بأسرها تصنع القنوات وتخلق الفرص أمام الحوار والبحث. وفي كل معاهد اللاهوت يعقد مجلس أساتذة المعهد ندوات ومحاضرات للعائدين من البعثات. كما تلقى محاضرات عن الأبحاث الجديدة على طلبة المعهد وعلى طلبة الدراسات العليا لنشر خلاصة ما توصل إليه الذين حصلوا على درجات الماجستير أو الدكتوراه. ولدى أغلب معاهد اللاهوت مجلة علمية محدودة التوزيع تنشر الأبحاث والمقالات .. هذا ما تفعله معاهد اللاهوت لكي تقضي على الفجوة بين أجيال الدارسين، ولكي تخلق فرص الحوار، ولكي تدفع عجلة البحث والدراسة إلى الأمام. وكل معاهد اللاهوت تطبع على نفقتها الخاصة رسائل الماجستير والدكتوراه الخاصة بأعضاء هيئة التدريس.

ويجب أن أسجل هنا أنني واحد من الذين طلبوا عقد الندوات أكثر من مرة ابتداءً من عام ١٩٧٢، وللأسف لم يتحقق شيء من ذلك.

إنني أعتقد أننا لا نعرف تراث كنيستنا معرفة كاملة. فهذا التراث لم يُنشر حتى هذه اللحظة في مصر. وتراثنا اليوناني والقبطي والعربي تنشره جامعات أوروبا وأمريكا. وحتى التراث العربي الذي بدأ من أواخر القرن العاشر الميلادي، وكان رائده الأول الأنبا ساويروس أسقف الأشمونين، قد نُشر خارج مصر.

وتوقفت حركة ترجمة الآباء وهي الحركة التي كان يجب أن تدخل كجانب أساسي في برامج الكلية الاكليريكية[١]. وهذا جعل معرفتنا محدودة بما لدينا من مصادر سبق الإشارة إليها. والحاجة الملحة أن تصبح كتابات الآباء في العقيدة الأرثوذكسية ليست مجرد عبارات نرددها ونحاول الانتماء إليها، بل حقيقة نحرص عليها بمراجعة شاملة لكل ما لدينا من كتب ومقالات ودراسات على كتابات الآباء هذا العمل سوف يفتح باب النهضة الفكرية.

وهكذا شاعت عندنا عبارات ووجهات نظر دون سند من التقليد. وإذا كان هذا جائز في كنائس أخرى فهو غير جائز بالمرة في أي كنيسة أرثوذكسية. وبدون حساسية يجب أن يقوم حوار بين كل الذين يهتمون بالعقيدة وعلى أساس ثابت، وهو ما سلَّمه الآباء إلينا من تقليد مدون ومعروف وثابت في كتاباتهم.

الجدل في الموضوعات الفرعية دون العودة إلى الجذور:

إن ما أثير عندنا أغلبه موضوعات فرعية اكتسبت صورة عقائدية، وهذا يعبِّر في الواقع عن مسألتين.

أولاً: الابتعاد عن تراث الآباء.

ثانياً: الابتعاد عن الأصول الثابتة التي يقوم عليها البناء العقيدي الأرثوذكسي.

ويحضرني في هذا المجال الجدل الذي ثار حول صلاة ودخول المرأة الطامث إلى الكنيسة وموضوع الإفرازات الجسدية بشكل عام. إنني أعبِّر عن حزني الشديد؛ لأن هذا الموضوع الفرعي لم يُبحث بالمرة من زاوية عقائدية أو رعائية أو روحية، ولا تمت مراجعة

---

(١) نشيد هنا بدور مركز دراسات الآباء في نشر كثير من نصوص الآباء، هذا المجهود المستمر منذ نشأة المركز وحتى الآن. ويبقى أن تدخل هذه النصوص مجال برامج الدراسة في الكلية الإكليريكية.

الآراء التي قيلت على ما هو ثابت في كتابات الآباء والقوانين الكنسية في الألف سنة الأولى من حياة الكنيسة الجامعة[١]. ويحضرني في هذه المناسبة بعض الاعتراضات التي تنقل شفوياً والتي تقال أحياناً في العظات، وهو أن المرأة الطامث تُمنع من التناول لأن دم المسيح يدخل في الدورة الدموية لكل انسان متناول، فإذا جرح أو سال دمه، فهذا الدم هو بكل يقين دم ربنا يسوع المسيح نفسه. وأنا هنا لا أفتح باب النقاش في موضوع السماح للمرأة الطامث بدخول الكنيسة أو تناولها. إنما اعتراضي ينصب على التبرير الذي يقدَّم عن ذلك، وهو اعتراضٌ يقوم على نقطة واضحة، وهي أننا نعالج الموضوعات الفرعية بدون العودة إلى الجذور أو أساسات الايمان الأرثوذكسي.

فهل حقاً يتحول المسيح فينا نحن الترابيين إلى عنصر ترابي أو أرضي؟!! وهل حقاً أن الدم الالهي يصبح فينا دماً بشرياً قابلاً للفساد والانحلال رغم أنه دم ابن الله الذي قهر الفساد ولم يتحلل حتى في قبره؟!!!

الأصول أو الجذور الخاصة بهذا الموضوع يعبِّر عنها الرسول بولس بأن المائت يبتلع من الحياة (٢ كور ٥: ٤)، وأن دم المسيح يطهر ضمائرنا من الأعمال الميتة (عب ٢: ١٣ – ١٤). فالأصل هو تحول الإنسان المتناول إلى مجد القيامة وقوة الحياة الأبدية، فكيف يتحول المسيح فينا إلى عنصر قابل للموت وهو الدم والجسد البشري الذي يموت فعلاً ويتحلل إلى تراب، هل هذا تعليم يتفق مع التعليم بقيامة الرب؟

وإذا كانت الافخارستيا تحول أجسادنا إلى جسد القيامة، بل إلى جسد المسيح الممجد لأننا سنكون على مثاله (فيلبي ٣: ٢٢). فكيف يتحول المسيح فينا بالتناول إلى جسد مائت وإلى دمٍ يفنى من آن لآخر حسبما هو ثابت من كتب الطب ؟!

---

(١) يمكن مراجعة دراستنا في هذا الموضوع والتي أعدنا نشرها بعنوان: تطور النظرة إلى التطهيرات الجسدية في الطقوس والقوانين الكنسية من العصر الرسولي حتى العصر الحديث، القاهرة، ٢٠١٣. وهذه الدراسة منشورة على موقع www.coptology.com.

ولكي أدلك على أهمية ما ذكرت فإنني أشير إلى تقليد الكنيسة في هذا الصدد. فالقديس كيرلس الاورشليمي يقول: "هذا الخبز المقدس الذي يوزَّع لغذاء النفس. هذا الخبز لا ينزل إلى الجوف ولا يدفع إلى المخرج (متى ١٥: ١٧). ولكنه يتوزَّع على كل بنيتك لفائدة النفس والجسد" (عظة ٢٣: ١٥ – ترجمة الأب جورج نصور ص ٤٠٩).

فهل يوجد أوضح من هذا الكلام؟ فالإفخارستيا ليست مثل الطعام البائد الذي يدخل جوف الإنسان ويتحول بعد ذلك إلى افرازات مهما كان نوعها.

حقيقي أن بعض الآباء أحياناً مثل القديس كيرلس الاورشليمي يقولون: "وإذ أنت تشترك في جسد المسيح ودمه تصبح جسداً واحداً ودماً واحداً مع المسيح. وهكذا نصبح نحن حاملي المسيح بما أن جسده ودمه ينتشران في أعضائنا. وبهذه الكيفية نصبح على حد تعبير الطوباوي بطرس "شركاء الطبيعة الإلهية" (٢ بطرس ١: ٤)، ولكن هذا لا يعني أن يتحول دم المسيح وجسده فينا إلى عنصرٍ أرضي يجوز عليه التحلل والفناء، فالجذر أو الأصل هنا هو تحول الإنسان إلى الشركة في الطبيعة الالهية[١] .. لكن هذا الموضوع ممنوع حتى مجرد الاشارة إليه، ويعتبره بعض الأساقفة هرطقة[٢]. والنتيجة الحتمية هي أن يتجه الفكر إزاء الابتعاد عن الأصول وإزاء تحريم الكلام عن الشركة في الطبيعة الالهية، إلى ما هو مادي وأرضي، طالما أن الاشتراك فيما هو سمائي ممنوع الاشارة إليه ويعتبر هرطقة!!

كم هو شنيع أن نتصور أن الابن الكلمة رب الحياة ورب المجد الجالس على الشاروبيم يتحول فينا –بعد أن دخل مجده– إلى عنصر ترابي أرضي يمكن سكبه على الأرض ويفرزه الجسد. هذا التصور يجعل المسيح الحي القائم من بين الأموات يعود من

---

(١) راجع دراستنا عن هذا الموضوع بعنوان: الشركة في الطبيعة الإلهية، دراسة للأصول الرسولية للخلاص، القديس أثناسيوس وآباء الكنيسة الجامعة، القاهرة، فبراير ٢٠٠٧. والكتاب منشور على موقع www.coptology.com.

(٢) راجع دراستنا المنشورة على موقع www.coptology.com بعنوان حوار مع أسقف قبطي عن الشركة في الطبيعة الإلهية.

جديد لكي يصبح تحت سيطرة قوى الموت والفساد. هذا التصور يجعل رب الحياة والقيامة كائناً أرضياً مثلنا عجز عن أن يحولنا إلى سمائيين. وما أفظع أن نتصور أننا عندما نتناوله هو الذي يتحول فينا لا نحن الذين نتحول إليه!!

الأصل هو أننا بالإفخارستيا نصبح أبناء القيامة، حسبما قال الرب نفسه، وحسبما سلَّمنا الآباء، وحسبما تشهد القداسات، بل أن الكنيسة القبطية تعلمنا أن نسبح ونقول: "أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له". وتشرح ذلك في ثاؤطوكية الجمعة: "هو أخذ جسدنا وأعطانا روحه القدوس وجعلنا واحداً معه من قبل صلاحه"، وهكذا صرنا واحداً معه، شركاء إلوهيته أي أننا صرنا بلا فساد وسمائيين بالتناول. إن التحول لا يتم في الرب وإنما يتم في المتناولين، وهو ما تصرح به صلوات كل القداسات الارثوذكسية. وإذا تحول الرب فينا بعد قيامته وصعوده إلى عنصر ترابي .. فماذا تبقى لنا من إيمان؟

ولعل النقطة العقائدية الأصلية التي غابت عن مناقشة هذه القضية الفرعية هي انعدام الكلام الواضح والصريح عن الافخارستيا والقيامة في الوقت الذي يكثر فيه الكلام عن الإفخارستيا ذبيحة الصليب، وهو تعبير غربي. البُعد اللاهوتي الخاص بالقيامة والذي يقوم عليه تقديم صعيدة الشكر غائب وغير معروف في أحاديثنا، مع أن الطقس يحرص ذلك مؤكداً أن الجسد هو الجسد المحيي، وبرشم الدم بالجسد والجسد بالدم يؤكد عدم انفصال الحياة والقيامة معلناً أننا نأكل "الجسد المحيي" لكي نحيا به.

ويقول اثناسيوس الرسولي في الرسائل الفصحية:

"أننا لا نشترك في جسد انسان بل نتناول جسد الكلمة نفسه".(رسالة ٢: ١).

"يا أحبائي، إننا لا نقترب من عيد أرضي، بل عيد سماوي وأبدي. ولا نرى شيئاً من الظلال بل الحقيقة .. أما نحن فإننا من الآن نأكل من الكلمة الذي من الآب لندهن أعتاب قلوبنا وتختم بدم العهد الجديد".

(رسالة ٤: ٣).

"فإننا نأكل طعام الحياة ونعطش دائماً لكي تمتلئ نفوسنا بالشبع من ينبوع دمه الكريم". (رسالة ٥: ١).

"لنستعد لكي نقترب من الحمل الالهي وأن نلمس الطعام السمائي".

(رسالة ٥: ٥).

ماذا يعني الابتعاد عن الجذور والتمسك بقضايا فرعية دون أن يتكون عندنا التصور العقيدي الكامل للأصل والفرع معاً في وحدة أرثوذكسية؟ صلواتنا الطقسية تعبِّر عن هذه الوحدة، وتؤكد دائماً أن ما يحدث في الحياة الروحية، إنما هو ثمرةٌ نابعة من الجذر. لقد قيل في تبرير المنع من التناول بسبب موضوع الافرازات الجسدية، أن ذلك خاصٌ بوضع اللعنة والفساد والموت، وأن المسيح لم يحرر الإنسان من الموت والفساد. وهذا قول غريب لا يمكن لمن يعرف الجذور أن يقبله.

إن الإنسان يجب أن يصاب بالذهول إذا سمع أن الإنسان بعد تجسد ابن الله وموته وقيامته لا زال خاضعاً للفساد، وأنه لا زال يموت تحت لعنة الموت أو أن الأرض لا زالت تحت اللعنة مع أنها هي التي تعطي لنا الخبز والخمر للإفخارستيا والزيوت للميرون ومسحة المرضى .. الخ. هذا التعليم إذا ذاع بهذا الشكل سوف يخلع أسرار المعمودية والميرون والإفخارستيا من الكنيسة ويحولها إلى طقوس بلا فاعلية روحية. إنه تعليم يتناقض ليس فقط مع أبسط الحقائق الإيمانية في الكتاب المقدس، ولكنه يتناقض أيضاً مع صلوات وتسابيح الكنيسة القبطية نفسها التي تعبِّر عن عقيدتها بأسلوب واضح لا يقبل الجدل. وإذا قال البعض تعليماً وقالت الكتب الطقسية القبطية تعليماً آخر مختلف تماماً .. فما هي النتيجة؟

ولأن كتب الطقوس عندنا هي صوت الآباء الحي، فإنني سوف أضع أمام محبتكم بعض النصوص الطقسية؛ لأننا لسنا في حاجة إلى اقتباس نصوص الصلوات والتسابيح التي تؤكد أن الرب سحق الموت وأباده، لأن كل مرة يرد فيها ذكر "التجسد –

الصليب – القيامة – والدة الإله"، فإن الكنيسة القبطية ومعها كل الكنائس الارثوذكسية الأخرى تؤكد تمسكها بزوال اللعنة والموت ونهاية الفساد الانساني.

الابصلمودية السنوية:

+ فلنبارك الرب كل حين ونمجد قيامته، لأنه صبر وسحق الموت بموته.
+ كل الأفراح تليق بك يا والدة الإله لأنه من قِبلك رجع آدم إلى الفردوس، ونالت الزينة حواء عوض حزنها، وأخذت الحرية دفعة أخرى من أجلك والخلاص الأبدي.
+ حطمت قوة الموت أيها المخلص .. أقمت آدم معك وعتقته من الجحيم.

(قطع نصف الليل).

وعن اللعنة والموت فإن الكلام صريح:

+ ولدت ايتها العذراء معطي الحياة وخلصت آدم من الخطية ومنحت حواء الفرح عوض حزنها، وأنعمت لنا بالحياة والخلاص من الفساد والتغيير.

(تسبحة نصف الليل).

وماذا يعني الكلام عن سيدتنا والدة الإله سوى الكلام عن نعمة الله:

+ يا من لبست لباس السمائيين حتى سترت آدم بلباس النعمة ورددته مرة أخرى إلى الفردوس موضع الفرح.
+ فتح باب الفردوس ورد آدم إلى رئاسته مرة أخرى.

(ثاؤطوكية الأحد).

بل أن ثاؤطوكية الاثنين أكثر صراحة وهي تتكلم عن الخطية الأولى وسقوط الإنسان وكيف عالج التجسد هذا السقوط.

+ حواء التي أطغتها الحية فأخذت قضية من قبل الرب أن بالكثرة أكثر أحزانك وتنهدك.

وهل تعني الاشارة إلى حواء، المرأة الأولى فقط، أم أن الإشارة إلى الجنس البشري وبشكل خاص النساء؟

+ تحنن الرب بمحبته للبشر وسر مرة أخرى أن يعتقها.
+ السلام لبيت لحم مدينة الأنبياء التي ولد فيها المسيح آدم الثاني لكي يرد آدم الإنسان الأول الذي من التراب إلى الفردوس، ويحل قضية الموت انك تراب والى التراب تعود.
+ لأن الموضع الذي كثرت فيه الخطية تفاضلت نعمة المسيح.
+ لأنه حل الحاجز وقتل العداوة بالكمال.
+ مزق كتاب يد العبودية لآدم وحواء وجعلهما حرين.
+ خلصت آدم من الغواية وعتقت حواء من طلقات الموت.

(ثاؤطوكية الاثنين).

إمَّا أن يكون هذا التعليم صحيح ويعبِّر عن عقيدة صحيحة، وإمَّا إن يكون ما يقال عندنا الآن هو الصحيح، وبالتالي علينا أن نغيِّر الإبصلمودية والخولاجي.

ولكن الخلاص برمته تشرحه هذه القطع:

+ آدم أبانا المخلوق الأول .. بمشورة حواء أمنا الأولى أكل آدم من ثمرة الشجرة، فجاء على جنسنا وكل الخليقة سلطان الموت والفساد.
+ ومن قبل مريم والدة الإله رجع آدم إلى رئاسته مرة أخرى.
+ لأن من قبلها (مريم) جنس النساء وجد دالة أمام الرب. (لبش الاثنين).
+ السلام للتي أعطت الخلاص لآدم وحواء ..
+ بقى الهاً على حاله وصار انساناً كاملاً لكي يحل زلة آدم ويخلص الذي هلك.

ومع ذلك لا تزال – حسب التعليم السائد الذي يعبِّر عنه نيافة الأنبا بيشوي أسقف دمياط – زلة آدم وحواء في الافرازات الجسدية وطمث المرأة والولادة.

تقول تسابيح الكنيسة إن الإنسان صار مواطناً في السماء ودخل الفردوس، أي الكنيسة لكي يأكل من شجرة الحياة أي جسد ودم ربنا، بينما التعليم السائد الآن يقول إننا لا نزال تحت اللعنة ونعيش على أرض اللعنة والموت، وكأن المسيح لم يغيِّر شيئاً؟!

+ بقى إلهاً على حاله وصار انساناً كاملاً لكي يحل زلة آدم ويخلص الذي هلك ويصيره مواطناً ⲙⲡⲟⲗⲓⲧⲏⲥ في السموات ويرده إلى رئاسته كعظيم رحمته.

(ثاؤطوكية الثلاثاء).

العودة إلى الجذور من أجل إنقاذ الطقس والصلوات الطقسية:

صحيح أن المرأة تحبل بالوجع، وأن الأرض لا تزال تنبت شوكاً .. الخ. ولكن هل هذا له علاقة باللعنة القديمة؟ .. صحيح أن الجسد يعود إلى التراب، لكن هل لهذا علاقة بالموت كما حدده الكتاب المقدس والآباء؟ هكذا يشرح القديس اثناسيوس هذه الأمور مؤكداً أن هذه الأمور، أي بقايا الوضع الطبيعي لا علاقة له بالموت والفساد بعد موت الرب وقيامته.

ولو كان الجسد لا زال تحت لعنة الموت وسلطان الموت .. فلماذا توضع عظام القديسين في الكنائس؟ حسب شريعة العهد القديم، هذه العظام في حد ذاتها نجاسة وكل من يلمسها يتنجس .. فهل الكنائس التي تحتفظ أحياناً بأجساد كاملة لبعض الآباء .. هي تحتفظ في الواقع بنجاسة حسب شريعة العهد القديم!! وهل مظاهر التكريم من سجود وتقبيل في الأعياد وغيرها .. هي حصول على نجاسة، أم أن المسيح افتدى الرجال فقط أو خلص آدم وحواء؟!!

+ فخر جميع العذارى هي مريم والدة الإله .. من أجلها أيضاً انحلت اللعنة الأولى التي جاءت على جنسنا من قبل المخالفة التي صارت فيها المرأة إذ أكلت من الشجرة.

+ من أجل حواء أغلق باب الفردوس. ومن قبل مريم العذراء فتح لنا مرة ثانية.

+ استحقينا شجرة الحياة لنأكل منها أي جسد الله ودمه الحقيقي. وعن الولادة والوجع تميز النصوص بين الوجع كألم طبيعي والوجع الناتج عن فقدان الشركة.

+ يا لعمق وغنى حكمة الله، لأن البطن الذي طرح للحكم وولد الأولاد بوجع القلب.

+ صار ينبوعاً لعدم الموت، وولدت لنا عمانوئيل بغير زرع فساد ونقض فساد جنسنا. (ثاؤطوكية الخميس).

+ افرحي يا رجاء خلاص المسكونة كلها، لأننا من أجلك عتقنا من لعنة حواء.

+ من أجلك أيضاً صرنا مسكناً للروح القدس، هذا الذي حل عليك وقدسك. (لبش واطس السبت).

العودة إلى تعليم الآباء لإنقاذ ما تبقى من لاهوت الأسرار:

إن الموضوع لا يمس فقط صلوات الكنيسة والانتصار على الموت، ولكنه يمس موضوعاً آخر، وهو المعمودية والميرون والإفخارستيا كأسرار تعتق فيها الطبيعة الانسانية من الدنس والفساد. فهل تفقد هذه الأسرار مفعولها مثل رشومات الميرون بسبب طمث

المرأة؟ وهل نفقد ثباتنا في المسيح الذي نأخذه في الافخارستيا، إذا أدى القانون الطبيعي دوره الذي وضعه خالق الأجساد؟ وهل مسحة الميرون عاجزة عن أن تحفظ للإنسان تقديس النفس والجسد حتى يصبح الإنسان محتاجاً إلى الاغتسال بالماء لكي يتقدس؟ وأسئلة أخرى كثيرة .. لا تخفى على قداستكم.

نظرة شاملة على كتاب "تجسد الكلمة" للقديس اثناسيوس:

اعتاد آباء الكنيسة الجامعة أن يقولوا دائماً أنهم يتبعون الآباء. إذن ونحن نتبع الآباء، نسجل هنا ما يقوله القديس اثناسيوس عن: اللعنة – الموت والفساد.

+ أما إذا تعدى الوصية وإرتد وأصبح شريراً، فيعلم بأنه يجلب على نفسه الفساد بالموت الذي كان يستحقه بالطبيعة، وأنه لا يستحق الحياة في الفردوس بعد، بل يطرد منه من ذلك الوقت ولكي يموت ويبقى في الموت والفساد. (تجسد الكلمة ٣: ٤).

+ وماذا يعني بقوله موتاً تموت؟ ليس المقصود مجرد الموت فقط بل ايضاً البقاء إلى الأبد في فساد الموت. (تجسد الكلمة ٣: ٤).

ولذلك الفساد الطبيعي هو انحلال طبيعي بسبب عدم قدرة الإنسان على أن يكون له بقاء أو وجود ذاتي – أي بلغة اللاهوت المعاصر – لأن الإنسان ليس "واجب الوجود".

+ لأن تعديهم الوصية أعادهم إلى حالتهم الطبيعية، حتى أنهم كما نشأوا من العدم كذلك يجب أن لا يتوقعوا الا الفساد الذي يؤدي إلى العدم مع توالي الزمن. (تجسد الكلمة ٤: ٤).

+ لأنهم إذ كانوا بحضور الكلمة وتعطفه قد دعوا إلى الوجود .. يجب أن تكون النتيجة بطبيعة الحال الحرمان من الوجود إلى الأبد، طالما كانوا

يستمدون وجودهم من الله الموجود (الكائن). وبتعبير آخر يجب أن تكون النتيجة الانحلال، وبالتالي البقاء في حالة الموت والفساد.

(تجسد الكلمة ٤: ٥).

فالدراسة الدقيقة للنصوص التي أخذناها من ترجمة القس مرقس داود تؤكد أن عبارة "الفساد الطبيعي" هي حالة الإنسان بدون الله، وهي قابليته للموت. هذه حالة طبيعية تماماً لأن الطبيعة الانسانية لا تملك القدرة الذاتية على البقاء لا روحياً ولا جسدياً.

+ بالطبيعة فاسدون ... تعينوا للخلاص من حالتهم الطبيعية بنعمة اشتراكهم في الكلمة. (تجسد الكلمة ٥: ١).

+ ولأن الكلمة حل معهم، فحتى فسادهم الطبيعي لم يجسر أن يقترب منهم ... لكن الموت دخل إلى العالم .. بدأ البشر يموتون وساد عليهم الفساد، من ذلك الوقت فصاعداً وصار له سلطان على كل الجنس البشري أكثر من سلطانه الطبيعي لأنه أتى نتيجة تهديد الله في حال عصيان الوصية. (تجسد الكلمة ٥: ٢ – ٥: ٣ – ٦: ١).

فما هي المشكلة الحقيقية للانسان؟

+ الإنسان فانٍ وفاسدٌ بالطبيعة ولا ينقذه إلَّا الشركة في الله.

(تجسد الكلمة ٤: ٦ – ٥: ١).

+ أما وقد علمنا أن الإنسان بمجرد التعدي انحرف في تيار الفساد الذي كان طبيعة له .. وحرم من تلك النعمة التي سبق أن اعطيت له وهي مماثلة لصورة الله. (تجسد الكلمة ٧: ٤).

نتائج التجسد كما يحددها القديس اثناسيوس:

يشرح القديس اثناسيوس نتائج التجسد وبشكل خاص اتحاد اللاهوت بالناسوت على هذا النحو:

+ لكي يأتي بالفاسد إلى عدم فساد.

(تجسد الكلمة ٧: ٥).

+ رأى جنس الخليقة العاقلة في طريق الهلاك وان الموت يسودهم بالفساد وإذ رأى أيضاً أن التهديد بالموت في حالة التعدي قد مكن الفساد من طبيعتنا. (تجسد الكلمة ٨: ٢).

ولذلك تجسد ومات وقام:

+ لكي يعيد البشر إلى عدم الفساد بعد أن عادوا إلى الفساد ويحييهم من الموت بجسده وبنعمة القيامة. (تجسد الكلمة ٨: ٤).

+ وإذا رأى الكلمة أن فساد البشرية لا يمكن أن يُبطل الا بالموت كشرط لازم وأنه من المستحيل أن يتحمل الكلمة الموت لأنه غير مائت ..

+ أخذ لنفسه جسداً قابلاً للموت، حتى باتحاده بالكلمة الذي هو فوق الكل يكون جديراً بأن يموت نيابة عن الكل وحتى يبقى في عدم فساد بسبب الكلمة الذي أتى ليحل فيه وحتى يتحرر الجميع من الفساد فيما بعد بنعمة القيامة من الأموات. (تجسد الكلمة ٩: ١).

+ وإذا اتحد ابن الله عديم الفساد بالجميع بطبيعة مماثلة، فقد ألبس الجميع عدم الفساد بطبيعة الحال بوعد القيامة من الأموات إلا أنه لم يعد ممكناً أن ينشب فساد الموت الفعلي أظفاره في البشر.(تجسد الكلمة ٩: ٢).

+ فإنه إذ اتى إلى عالمنا، واتخذ اقامته في جسد واحد بين أترابه .. زال عنهم فساد الموت الذي كان سائداً عليهم من قبل.

اللعنة والموت كما يشرحها القديس اثناسيوس:

النصوص لا تحتاج إلى تعليق:

+ هكذا نحن الآن لا نموت بعد كخاضعين للدينونة بل كأناس يقومون من الموت ننتظر القيامة العامة. (تجسد الكلمة ١٠: ٥).

+ فجسد المسيح تقدس بسبب اتحاده بالكلمة.

(تجسد الكلمة ١٧: ٥ – ٤١: ٧ – ٤٣: ٦).

وبذلك يقول اثناسيوس عن الاتحاد:

+ لأنه عديم الفساد فقد أحيا وطهر الجسد الذي كان في حد ذاته قابلاً للفناء. (تجسد الكلمة ١٧: ٧).

فهل يمكن بعد ما قاله أثناسيوس أن يقال عندنا اليوم إن ناسوت المسيح له قداسة ذاتية بدون الاتحاد .. كأن هناك محاولة متعمدة لإنكار الاتحاد وكأن اتحاد اللاهوت بالناسوت هو خطر يهدد خلاص الإنسان ..؟

+ أحيا وطهر الجسد الذي كان في حد ذاته قابلاً للفساد.

(تجسد الكلمة ١٧: ٧).

ويؤكد اثناسيوس بكلماته المتواترة أن جسد المسيح:

+ جسد من جنسنا
+ جسد لا يختلف عن أجسادنا
+ أخذ من أجسادنا جسداً مماثلاً لطبيعتها.

(تجسد الكلمة ٨: ٣، ٢، ٤).

+ أخذ لنفسه جسداً قابلاً للموت ... جسد مماثل لأجساد البشرية. (تجسد الكلمة ٩: ١).

+ جسداً قابلاً للموت.

(تجسد الكلمة ٢٠: ٤ – ٢٠: ٦ – ١٠: ٤ – ٣١: ٤).

+ جسداً قابلاً للفساد "وما دام قد لبس الفساد فما كان ممكناً أن يظهر الموت إلا في الجسد وفقاً لطبيعته، لهذا لبس جسداً لكي يلتقي بالموت في جسده ويبيده".

(تجسد الكلمة ٤٤: ٦ – ترجمة القس مرقس داود).

وهكذا يصوِّر أثناسيوس حقيقة الإنسان وحقيقة العنصر الإنساني الذي أخذه الكلمة .. أمَّا نحن، فإننا نخاف من ذكر هذه الحقائق؛ لأن تعليم الاتحاد عندنا تراث ديني مسموع غير محقق. نخاف أن نقول إن جسد المسيح بدون اللاهوت ليس شيئاً.

ويعود القديس اثناسيوس لكي يؤكد أننا نحن الذين نتَّحد بهذا الجسد، وبشكل خاص في الافخارستيا إنما نقهر الموت.

+ لكي يظهر أنه أقوى من الموت بإظهاره أن جسده عديم الفساد.

(تجسد الكلمة ٢٠: ٢).

لقد أبطل المسيح الفساد بسبب الاتحاد وبسبب الموت والقيامة.

+ كان جسداً قابلاً للموت ولكن بفضل اتحاده بالكلمة لم يعد خاضعاً للفساد بمقتضى طبيعته بل خرج عن دائرة الفساد بسبب الكلمة الذي أتى ليحل فيه. (تجسد الكلمة ٢٠: ٤).

+ وهكذا تم عملان عجيبان في الحال:

أولهما: اتمام موت الجميع في جسد الرب.

والثاني: القضاء على الموت والفساد كلية بفضل اتحاد الكلمة بالجسد.

(تجسد الكلمة ٢٠: ٥).

إنني أخشى من مقاومتنا لتعبير الشركة في الطبيعة الالهية؛ لأن هذه المقاومة موجَّهةٌ لاتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح، أي نتائج التجسد كما يشرحها أثناسيوس، لأننا لن نفهم القيامة، ولن نفهم عدم الموت كعطية إلهية إلَّا بالعودة إلى الشركة في الطبيعة الالهية .. أعتقد أن تعليم الارثوذكسية عن النعمة يواجه خطراً شديداً سوف أشرحه في مكانه المناسب.

الموت كانحلال طبيعي عند اثناسيوس:

كأن القديس اثناسيوس كان يعلم مسبقاً بما سوف تقابله الكنيسة في مستقبل أيامها فكتب الفصل ٢١ عن مشكلة الموت مسجلاً تقليد الرب والرسل.

+ "والآن إذا مات عنا مخلص الجميع، فإننا نحن بالمسيح، لا نموت بعد كما كانوا قديماً حسب وعيد الناموس لأن هذا الحكم قد بطل. وإذا بطل الفساد

وأبيد بنعمة القيامة فإننا من ذلك الوقت انما ننحل وفقاً لطبيعة أجسادنا الفانية .. حتى يمكن أن ننال قيامة أفضل". (تجسد الكلمة ٢١: ١).

+ لأننا كالبذور التي تلقى في الأرض – لا نهلك بإنحلالنا بل نزرع في الأرض لنقوم ثانية إذ أبيد الموت بنعمة القيامة. (تجسد الكلمة ٢١: ٢).

+ وهكذا سجل انقضاء ناموس الموت والفساد في الفصول: ٢٠: ٦ – ٢١: ١ – ٢١: ٩ – ١٩: ٤ – ١٩: ٢.

كان الفساد طبيعة فينا، فكيف تصرف المسيح مع الفساد والموت؟

"ثم يجب أن تعلم أيضاً أن الفساد الذي حصل لم يكن خارج الجسد بل لصق به، وكان مطلوباً أن تلتصق به الحياة عوض الفساد. حتى كما تمكن الموت من الجسد تتمكن منه الحياة أيضاً".

+ لو كان الموت خارج الجسد لكان من اللائق أن تتصل به الحياة من الخارج. أما وقد صار الموت ممتزجاً بالجسد وسائداً عليه كما لو كان متحداً به، فكان مطلوباً أن تمتزج الحياة أيضاً، حتى إذا ما لبس الجسد الحياة بدل الموت نزع عنه الفساد.

+ لهذا السبب كان معقولاً جداً أن يلبس المخلص جسداً حتى إذا ما إتحد الجسد بالحياة لا يبقى في الموت كمائت بل يقوم إلى عدم الموت إذ يلبس عدم الموت. وما دام قد لبس الفساد فما كان ممكناً أن يظهر الموت إلا في الجسد وفقاً لطبيعته. لهذا لبس المسيح جسداً لكي يلتقي بالموت في الجسد ويبيده.

+ لو كان الموت قد أبعد عن الجسد بمجرد إصدار أمر من الله لبقى رغم ذلك قابلاً للموت والفساد حسب طبيعة الأجساد. ولكن لكي لا

يكون هذا هو حال الجسد فقد لبس الجسد كلمة الله الخالي من الجسد. ولذلك فإنه لا يعود يرهب الموت أو الفساد، لأنه لبس الحياة كثوب ولأن الفساد قد أبيد فيه. (تجسد الكلمة ٤٤: ٤ – ٨).

ماذا يعني الابتعاد عن الجذور؟

وهكذا إذا تمت مناقشة أي موضوع فرعي بدون العودة إلى الجذور، فإن الكنيسة معرضة لما هو أخطر من مجال الهرطقات القديمة، أي مجال الارتداد عن المسيح وعن النعمة.

أولاً: مما سبق يظهر أن الموضوع الأصلي المعرض للإنكار هو قيامة المسيح وانتصاره على الموت والفساد الذي فينا. لو كانت قيامة المسيح قاصرة عليه هو لما وجدت في الكنيسة الأسرار لا سيما المعمودية والإفخارستيا. وهكذا أيضاً لا تصبح مناقشة الموضوع الفرعي مناسبة لإنكار الأساس أو الجذر، وهو أن المسيح قام وأقامنا فيه وأنه غلب الفساد والموت وأباده تماماً من الانسانية لا سيما بعد الاتحاد به في الأسرار.

ثانياً: وفي ضوء ما ذكره معلمنا أثناسيوس يصبح من الواضح أن المسيح الحي ورب الحياة لا يمكن أن يتحول فينا إلى عنصر يُستهلَك في الجهاز الهضمي والدورة الدموية .. الخ فقد قام المسيح من الموت فكيف يدخل بعد ذلك تحت سيطرة عوامل الانحلال؟

ثالثاً: أن النعمة التي جاء بها الرب وبتجسده من العذراء أمرٌ يجب أن يطبق في الممارسة، وأن يجعل كل تكريم لوالدة الاله هو تكريم لجنس النساء، وبالتالي يجب الامتناع عن إثارة موضوع اللعنة والموت وإلصاق الموضوعين بالطمث .. الخ.

رابعاً: إننا كما سوف أشرح في المكان المناسب، نقترب من هرطقة ماني التي تنسب الشر والفساد للمادة ولجسد الانسان. لأنه ما دام الدنس والنجاسة واللعنة

ملتصقة بالجسد وليس بالروح .. وما دام الجنس البشري ورث اللعنة والفساد الذي ينتقل بالوراثة وبواسطة الزواج من الوالدين إلى الأبناء .. ما دام كل ذلك يقال عندنا الآن .. فما هو الفرق بين هذا التعليم وهرطقة ماني؟

خامساً وأخيراً: ما هو جوهر النعمة في الأرثوذكسية، إذا كان تعبير الشركة في الطبيعة الالهية محظوراً؟ .. فالسؤال هو كيف نفهم النعمة؛ لأننا إن كنا بالطبيعة خالدون وأجسادنا فقط هي التي تحتاج للتجديد، فكيف لا تكون النعمة شيئاً مخلوقاً ينتمي إلى الطبائع المخلوقة. وإذا كان الفساد والموت في الجسد دون الروح فما قيمة التجسد؟ ولماذا أخذ ابن الله نفساً انسانية إن كان الأمر لا يحتاج إلَّا إلى تجديد الجسد فقط؟

إن كل هذه الأسئلة ذات دلالة في تاريخ الهرطقات، ذلك أن القول بأن النعمة مخلوقة أو تنتمي إلى الطبيعة المخلوقة هو قولٌ صريح بأن الفادي بدوره مخلوق، وهذه هي الأريوسية.

والادعاء بأن دم ربنا يسوع المسيح يقع تحت سيطرة قوى الإنسان وقوة الانحلال هو ادعاءٌ بأنه دم إنسان بشري وليس دم ابن الله قاهر الموت والفساد.

وإذا صار دم المسيح دماً بشرياً في عروقنا ويختلط بدمائنا وينزف إذا جرح المتناول، فهو قول بأن المسيح انسان فقط.

أمَّا الادعاء بحاجة الجسد فقط إلى الخلاص، فهو عودة إلى هرطقة ابوليناريوس، وهكذا تؤدي بنا مناقشة فرعية لموضوع فرعي دون أن نرى صلة هذا الموضوع الفرعي بالجذور إلى الوقوع حتماً في الهرطقة أو إلى الابتعاد عن الإيمان.

الخلافات اللاهوتية التي شاعت عندنا، والأخطاء الظاهرة في منهج البحث

قبل أن نناقش المزيد من الخلافات اللاهوتية التي شاعت عندنا يجب أن نستعرض نقطة خاصة بمنهج البحث نفسه، وهي نقطة أساسية. ففي كل كليات اللاهوت الارثوذكسية وغيرها تميز مناهج الدراسة بين نوعين من الكتب:

١- الكتب الدراسية *Text Books*

٢- الكتب والمراجع العلمية *Reference*

والنوع الأول أساسي؛ لأنه يقدم الحقائق الأساسية التي يجب أن يعرفها طالب اللاهوت لا سيما في السنوات الأولى من الدراسة. أما النوع الثاني فهو المعرفة العلمية المتقدمة والنقاط التي أثير حولها الجدل اللاهوتي وغيرها من النقاط التي لا تزال تحت البحث.

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن أغلب مذكرات أساتذة الكلية الاكليريكية تندرج تحت النوع الأول فقط.

كانت أول محاولة علمية للاستعانة بكتاب دراسي متقدم هو ترجمة نيافة الأنبا غريغوريوس لكتاب دراسي شاع في كليات اللاهوت الناطقة بالإنجليزية، وكان من الضروري أن يتم بعد ذلك ترجمة عدد من الكتب الدراسية الأخرى، ولكن هذا الجهد توقف.

وهنا يجب أن نسأل ما هي الكتب الدراسية المتوفرة عندنا والتي يمكن الاعتماد عليها للحصول على معرفة أساسية بالعقيدة الأرثوذكسية؟ إنني أترك الاجابة لقداستكم.

وما هي المراجع العلمية الارثوذكسية أو حتى غير الارثوذكسية التي نثق في أنها

تعرض الموضوعات العقائدية بكل دقة تاريخية؟

إن السؤالين لهما دلالة هامة؛ لأننا إذا اختلفنا حول موضوعٍ ما، فإنني على يقين أن المراجع التي نعتمد عليها هي نظرتنا الخاصة الذاتية وما يتحكم في هذه النظرة من انفعالات وعلاقات شخصية.

ما هو المرجع العلمي الذي يمكن أن نحيل عليه الطلبة في موضوع الأقنوم والمواهب الذي شغلنا به أنفسنا في السنوات العشرين الماضية؟ وما هو صوت التقليد في هذا الموضوع؟

الأقنوم والمواهب الجذور والفروع:

لديَّ تساؤلات عن صحة ما يُقال عن النعمة في الكنيسة القبطية في العصر الحديث؛ لأن ما يقال إنما يفتقر إلى الجذور الثابتة، وهي التسليم الرسولي كما سجله آباء الكنيسة. والبرهان الذي أقدمه على ابتعاد الكثيرين عن التعليم الارثوذكسي هو الجدل الطويل الذي دار عن أقنوم ومواهب الروح القدس .. هذا الجدال لا زال كعادتنا غير مدون ولم يحسم الكلام فيه على أرض التقليد لكي يظل باباً مفتوحاً في حياتنا الفكرية يمكن استخدامه لاتهام من نشاء دون أن يكون لدينا دليل واحد من التقليد على أن الكلام عن سكنى الروح القدس غير جائز، وأيضاً دون أن يكون لدينا دليل واحد من التقليد على أن الروح القدس ينفصل عن ما يسمى بالمواهب أو أن المواهب ليست هي أعمال الروح القدس، وأن أعمال الروح القدس هي قوة غريبة عن الروح القدس .. نحن لم نسمع عن مناقشة الموضوع أو بحثه من خلال المصادر الآبائية الكبرى عن الروح القدس، وهي الكتب التي وضعها الآباء أصلاً للدفاع عن الوهية الروح القدس، وفي مقدمتها رسائل القديس اثناسيوس إلى سرابيون، وكتاب الروح القدس للقديس باسيليوس وفيها أيضاً شرحوا موضوع النعمة، ولكي أدلل على عدم اللجوء إلى التقليد يكفي أن أشير إلى أن كل الذين يقاومون سكنى الروح القدس وحلوله فينا إنما يرددون بعض الأفكار

والعبارات ويكتفون بتهديد من لا يتفق معهم. لكن المأساة الحقيقية أن هذا الموضوع لم يعالج فقط من التقليد بل لم يُدرس في الأطار العقيدي الارثوذكسي، أي في إطار الأصول الآتية:

أولاً: عقيدة التجسد والصلب والقيامة.

ثانياً: حلول الروح القدس على المسيح في المعمودية، ثم مجيء أقنوم الروح القدس في يوم العنصرة لكي يسكن في الكنيسة إلى الأبد.

ثالثاً: اشتراك أقانيم الثالوث في خلاص الإنسان، وأن عمل الابن هو عمل الآب والروح القدس، وأن ما يقوم به الابن إنما يوهب بالروح القدس في الكنيسة.

رابعاً: إن عمل الابن الكلمة المتجسد، إنما يوهب في أسرار الكنيسة، وأن هذه الأسرار يقدسها ويعلنها الروح القدس ليس فقط في استدعاء الروح القدس، وإنما لأنه شريك في كل ما يعمله الابن والآب.

هذه هي الجذور العقائدية التي يجب أن تُراعى عندما نتكلم عن موضوع المواهب، وإذا لم يتم مراعاة هذه الجذور فإن الموضوع الفرعي الذي يدور عليه الجدل عندنا يمكن أن يقضي على هذه الجذور وهي بذاتها ينابيع النعمة الإلهية في الكنيسة[1].

نتائج الهرطقات القديمة:

مما يُؤسف له أن القضاء على اللاهوت المقارن في الإكليريكية بدعوى أن هذه الهرطقات مثل الاريوسية والنسطورية والأنومية .. الخ قد ماتت ولم يعد لنا حاجة إلى دراستها، قضى على القدرة على التمييز اللاهوتي الدقيق بين الصواب والخطأ في موضوع

(1) راجع بخصوص هذا الموضوع دراستنا بعنوان: مواهب الروح القدس: دراسة في الكتاب المقدس والآباء والطقس. منشورة على موقع www.coptology.com

الخلاص، وهو الإطار اللاهوتي الذي يجب أن يُناقش فيه موضوع المواهب والأقنوم. وهنا أضع أمام محبتكم بعض النقاط الأساسية والهامة الخاصة بموضوع الخلاص أو الخاصة بموضوع الأقنوم والمواهب:

أولاً: لو أننا ننال مواهب الروح القدس فقط .. فما معنى تجسد الابن وموته وقيامته؟ .. ولكن إن كنا بالروح القدس نأخذ شركتنا في موت الابن وقيامته في المعمودية ونصيباً من مسحته في الأردن وجسده ودمه في الافخارستيا، فالموضوع جد خطير.

إن كنا نشترك في موت الابن وقيامته فالرسول يقول لنا: "وإن كان روح الذي أقام يسوع المسيح ساكناً فيكم فالذي أقام المسيح من الأموات سيُحيي أجسادكم المائتة بروحه الساكن فيكم" (رو ٨: ١١). فمَن الذي أحيا المسيح من الأموات، أقنوم الروح القدس أم مواهب الروح القدس؟ لقد قبل ربنا يسوع المسيح الروح القدس لأجلنا، وعلى حد تعبير القديس اثناسيوس الرسولي، إنه عندما اعتمد يسوع في الأردن كنا نحن الذين اعتمدنا فيه، وعندما مُسح بالروح القدس كنا نحن الذين مُسحنا فيه (المقالة الأولى ضد الأريوسيين ٤٦، ٤٧، ٤٨). فمن الذي حلَّ على المسيح ومسح الانسانية فيه، المواهب أم الأقنوم؟ وإذا كان الروح القدس هو الذي كوَّن جسد ربنا يسوع المسيح في أحشاء العذراء القديسة مريم وهو الذي يُستدعى لكي يقوم بذلك على المذبح، والمماثلة بين الافخارستيا والتجسد معروفة لنا من كتابات الآباء، فمن الذي يحل على المذبح المواهب أم الأقنوم؟

ثانياً: نحن ننال ثمار اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح، وحسب كلمات القديس كيرلس السكندري يُسمى هذا الاتحاد بالاتحاد الأقنومي؛ لأن الاعتقاد الصحيح هو أن أقنوم الله الكلمة اتحد بالناسوت اتحاداً أقنومياً، وثمار هذا الاتحاد هي عدم الفساد وعدم الموت والقيامة والتبني. فهل هذه مواهب الروح القدس، أم هي عطايا الاتحاد الاقنومي التي توهب لنا بالروح القدس؟ وماذا يكون عدم الموت والقيامة، وماذا تكون عطية التبني إن لم تكن عطية نابعة من الابن، وبالتحديد من لاهوت الابن الكلمة،

وتوهب لنا في الأسرار أي بسبب الاتحاد؟ .. أم أن التصور النسطوري صار هو التعليم الشائع عندنا، والذي يجعل بعض الأساقفة الأفاضل يقولون –دون معرفة– بأننا نأكل ناسوت المسيح فقط في الإفخارستيا، دون أن يدركوا أن هذا هو تعليم نسطور؟

فإذا كنا نأخذ عدم الموت من الابن المتجسد، وهي العطية الإلهية؛ لأن أثناسيوس الرسولي –كما مر بنا– يقول إن الناسوت، حتى ناسوت المسيح قابل للموت وطهَّره الكلمة بالاتحاد به .. فهل عدم الموت موهبة خارجية تُعطى لنا من مصدر آخر غير لاهوت الابن الكلمة؟ .. هنا كان يجب أن يراجع تعليم الهراطقة عن الخلاص والنعمة؛ لأن الهراطقة مثل أريوس ونسطور وأنوميوس لا يؤمنون بأن نعمة الله هي نعمة غير مخلوقة .. والكلام عن الابن كمخلوق في الاريوسية يعني أن النعمة مخلوقة .. أما انكار الاتحاد عند نسطور، فهو يعني أن الاتصال بين اللاهوت والناسوت، إنما أقام نموذجاً لكي يتشبه به البشر أخلاقياً .. فليس ثمة شركة حقيقية بين المسيح والمؤمنين، وإنما العلاقة هي علاقة أدبية وأخلاقية فقط .. وهو كلام يتردد عندنا كثيراً .. أمَّا عند جميع الآباء والقديس كيرلس الكبير ومن قبله القديس أثناسيوس لا يمكن أن يحصل الإنسان على عدم الموت بالتقدم الأخلاقي، وإنما يوهب عدم الموت بالاشتراك في طبيعة الله الذي بطبيعته هو وحده عديم الموت.

لقد قدَّمنا نصوص أثناسيوس الرسولي في هذا الصدد عندما تعرضنا لموضوع الفساد والموت، ومع أن نصوص القديس كيرلس الكبير قاطعة وصريحة، إلَّا أننا نسمع ما يتردد من شائعات حول كتابات القديس كيرلس الكبير بأن الذين ترجموها قد أخطأوا في الترجمة –دون أن يراجع شخص واحد ما تُرجم– أو أن النصوص مزورة أو أنها مختلقة .. الخ ولذلك سوف أكتفي بالعودة إلى الجذور العقائدية التي لا يمكن أن يختلف عليها أحد.

كيف يحصل الإنسان على التبني؟ هل بالتشبه الأخلاقي بالمسيح، أم بالميلاد المعجزي الفائق في المعمودية والذي يؤدي حتماً إلى تجديد أخلاق الإنسان إن عاش حسب نعمة التبني؟

فما هي فائدة المعمودية؟ وماذا يُوهب لنا فيها .. ولماذا نحتاج إلى عمل إلهي مباشر وتدخُل إلهي خاص؟ .. لماذا يجب أن يكون المخلص إلهاً وليس مخلوقاً، وما هو سبب هذا التمسك بعقيدة إلوهية المسيح؟ الجواب لأن الخلاص مستحيل أن يُوهب لنا بواسطة إنسان.

وماذا يعني التبني؟ هل نحن أبناء الله فعلاً أم أبناء المواهب؟ .. أي تعبيرٍ من هذين يظهر في الأسفار الإلهية؟ وماذا يحدث عندما تحل المواهب محل الثالوث؟ تصبح المواهب هي الله الذي خلصنا!!

ثالثاً: كان إنكار إلوهية الروح القدس عند أنوميوس وغيره من الهراطقة يعني عند الآباء اعتبار أعمال الروح القدس فينا أعمال مخلوق .. وما دمنا لم ندرس بعد الهرطقة الأنومية ولا رد الآباء على أنوميوس، فإنني سوف ألجأ مرة ثانية إلى الجذور العقائدية التي لا يختلف عليها أحد.

خُلِقَ الإنسان على صورة الله لكي يتشبه بالله .. فهل يمكن أن يتم بذلك بدون صلة مباشرة بالله؟ هل يمكن بدون صلة مباشرة بالله أن يظل الإنسان صورة الله؟ وعندما سقط الإنسان تشوهت الصورة الإنسانية، من الذي جاء لكي يجدد الصورة: الله أم مخلوق؟ لماذا احتاج الإنسان إلى الخالق نفسه؟ ولماذا كان الخلاص مستحيلاً على إنسان أو مخلوق آخر؟ ألا يردنا هذا إلى موضوع النعمة غير المخلوقة أو النعمة الالهية؟

رابعاً: إذا كان أي حلول إلهي فينا يحولنا إلى طبيعة الله كما يقول بعض الأساقفة الأفاضل .. فمن هو صاحب هذه الفكرة بالتحديد؟ .. اوطاخي .. نعم هو الذي أشاع هذه الضلالة في الكنيسة .. وأنا أخشى أن يكون الهجوم على الشركة في الطبيعة الإلهية، أي النعمة، مصدره التصور الأوطاخي بأن أي صلة مباشرة باللاهوت تعني تحول الناسوت إلى لاهوت .. وهذه هي هرطقة أوطاخي.

خامساً: وإذا فصلنا الله عن النعمة، وأقانيم الثالوث عن المواهب، فماذا نقول عن محبة الله لنا التي انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا (رومية ٥: ٥) .. هل هي محبة الله فعلاً، أم موهبة أخرى غير المحبة الإلهية؟ .. صدقني يا صاحب القداسة إن المسيحية الارثوذكسية تواجه خطر الارتداد من الداخل، أي من داخل الكنيسة نفسها وليس من الخارج؛ لأن التعليم بشركة الإنسان في حياة الثالوث يقَاوَم بكل عنفٍ، وكأن جهد الآباء في مقاومة الهرطقات القديمة سوف يضيع هباءً.

ماذا يبقى لنا من الانجيل إذا كانت علاقتنا بالله لم تعد العلاقة الشخصية بالله، وإنما علاقة خارجية بشيء اسمه المواهب؟ .. وماذا سيكون وضع الإنسان بعد الموت، عندما يرى الله ويتحول بالرؤية إلى التشبه به؟ .. هل سيرى الله نفسه، أم سيرى المواهب فقط؟ .. وكيف سيرى الله وتظل علاقته بالله من خلال شيء آخر غير الله اسمه المواهب؟ .. وماذا ستكون الحياة الأبدية في هذه الحالة؟ .. لماذا لا تصدر الكنيسة القبطية بياناً عقائدياً رسمياً تحدد فيه موقفها من موضوع المواهب والأقنوم حتى تصبح الاتهامات رسمية وتنتهي الاشاعات والشوشرة التي سادت أجواء الحياة الكنسية عندنا في السنوات العشرين الماضية؟

بعض التصورات العقائدية السائدة عندنا في العصر الحديث

– يتصور البعض أن الإنسان خالدٌ بالطبيعة، وكأنه بذلك لم يُخلَق من العدم؛ لأن الخلق من العدم يعني أن كل ما يملكه الإنسان، إنما هو منحة إلهية. يتصور البعض أن القيامة قانون طبيعي، وهو تصور الديانات الأخرى كأن قيامة المسيح لم تغيِّر شيئاً، أو كأنها ليست هي مصدر قيامة الانسانية.

– يتصور البعض أن أي علاقة مباشرة مع الثالوث تعني تحول طبيعة الإنسان إلى جوهر الله .. وهو تصور الأوطاخية.

– يتصور البعض أن الافخارستيا هي الحصول على ناسوت المسيح فقط، وهو إحدى نتائج الجدل النسطوري حيث يذكر القديس كيرلس إننا بدون اتحاد نصبح من آكلي لحوم البشر (المسيح واحد).

– يتصور البعض أن التوبة هي عمل الإرادة وأن النعمة ليست هي القوة الفعالة في التوبة نفسها، والدليل على ذلك هو أن أغلب ما كُتِبَ عن التوبة عندنا لا يشرح دور النعمة .. فإذا كان الأمر كذلك، فكيف يختلف تعليم التوبة في المسيحية عن التوبة في الديانات الأخرى؟

– ويتصور البعض أن أفعال الله في التقديس تختلف عن طبيعة الله، وأنها أفعال مخلوقة مثل الشمس والقمر والملائكة، وبالتالي لا يدركون أن مصير الإنسان النهائي والأخير في هذه الحالة هو أن يحيا في علاقة خارجية أدبية أو يحيا منفصلاً عن الله، وهو تعليم أغلب الهرطقات القديمة

– ماذا عن تحويل الثالوث إلى ذات وعقل وحياة، وكيف قضى هذا التفسير على عقيدة الثالوث، وعلى نعمة التبني، وحوَّل النعمة الإلهية من علاقة شخصية إلى علاقة مجردة خيالية .. فهذا موضوع يحتاج إلى كتاب كامل .. وقد أشرت إليه في موضعه المناسب[١].

إنني أقترح ما يلي:

١– أن يقوم الأساتذة د. موريس، ود. رشدي، والأستاذ صموئيل بترجمة كتاب اللاهوت العقيدي للأب ***Karmiris*** إلى اللغة العربية.

٢– أن يتخصص طالب أو أكثر في دراسة الموضوعات التي ذكرت وأن يقدم عنها رسالة ماجستير أو دكتوراة.

---

(١) راجع دراستنا عن هذا الموضوع بعنوان: الثالوث، هل هو صفات الوجود والعقل والحياة؟ منشورة على موقع: www.coptology.com

الخلافات اللاهوتية التي شاعت عندنا، لم تكن خلافات على العقائد، بل خلافات على تفسير العقائد

العقيدة شيء، وتفسير العقيدة شيء آخر[١]. هذه الحقيقة البارزة تفرض نفسها علينا وبقوة إذا عدنا إلى التاريخ الكنسي.

مثلاً، مات المسيح على الصليب لأجل خلاصنا. هذه عقيدة. ولكن كيف نفهم موت المسيح على الصليب ونفسر الفداء[٢] .. لدينا النظريات أو التفاسير الآتية التي شاعت في التراث الكنسي:

أولاً: إخفاء المسيح للاهوته عن الشيطان .. العلامة اوريجينوس.

ثانياً: مصالحة العدل مع الرحمة .. ميمر العبد المملوك.

ثالثاً: الخطية غير المحدودة وإهانة الله غير المحدود .. نظرية أنسلم.

رابعاً: تعليم القديس اثناسيوس الكبير عن التجسد والموت والقيامة[٣].

هذه النقطة يدركها كل طالب لاهوت درس في معهد اللاهوت الخاص به في مادة هامة وأساسية لا يمكن أن يحصل طالب لاهوت على بكالوريوس بدونها، وهي مادة

---

(١) راجع دراستنا عن هذا الموضوع بعنوان: التمييز بين العقيدة والهرطقة والرأي، وكذلك درستنا عن الأرثوذكسية والهرطقة، وكليهما منشورتين على موقع: www.coptology.com

(٢) راجع في هذا الموضوع تفصيلاً كتابنا: موت المسيح على الصليب حسب تسليم الآباء، دراسة مقارنة لما ساد في بعض الكتابات القبطية في العصر الحديث عن الفداء والكفارة، القاهرة، ٢٠٠٩. وهذه الدراسة منشورة على موقع: www.coptology.com

(٣) ناقشنا هذه النظريات والتفسيرات تفصيلاً في كتابنا: القديس أثناسيوس الرسولي في مواجهة التراث الديني غير الأرثوذكسي، القاهرة، مايو ١٩٨٥. والكتاب منشور على موقع www.coptology.com

"تاريخ العقائد المسيحية". *History of Christian Doctrines*

هذه مادة لم تدخل الكلية الاكليريكية، ولم يحاول أحد أن يقدم لنا كتاباً فيها بعد أن توقفت محاولة الأنبا غريغوريوس. ولكن نظرة فاحصة على أي من هذه الكتب تؤكد لنا تنوع تفسير أو شرح العقيدة في كتابات الآباء أنفسهم، والمثل الخاص بشرح عقيدة الفداء السابق هو أفضل ما عندي في هذا المجال، لأن الآباء شرحوا الثالوث أيضاً وقدموا عدة تشبيهات متنوعة ومعروفة لكل من يدرس تاريخ العقائد المسيحية.

لست أدري على أي عقائد اختلفنا. حتى هذه اللحظة لا أعرف هرطوقياً واحداً في هذا الجيل كله أُدين بالهرطقة حسب القواعد الأرثوذكسية. نعم اختلفنا على شرح بعض العقائد لكننا لم نختلف على العقائد نفسها.

الممارسات الكنسية ليست عقائد في الكنيسة

لقد ضاع وقت وجهد كبير في الجدل حول الممارسات مثل تاريخ الأصوام، وطرق ممارسة الصوم، والاستحمام قبل التناول .. الخ. هذه الممارسات ليست عقائد لأن كل إنسان بكل كنيسة يمارسها حسب ظروف البيئة وحسب ظروف كل شخص.

إن العودة إلى تراث الآباء في هذا الموضوع بالذات هو عودة إلى التمييز بين ما يمارسه المسيحي وهو خاضع للثقافة وظروف الإنسان .. وبين العقيدة المسيحية نفسها الثابتة التي لا تقبل التغيير.

علَّمنا الآباء أنه توجد آراء بجانب العقائد:

إن العودة إلى تاريخ العقائد المسيحية يعني أن نميز بين العقيدة الثابتة في الكنيسة، والآراء التي قالها الآباء، مؤكدين أنها آراء وليست تعليماً عقائدياً، ولعل أفضل مثال هو تنوع بل واختلاف آراء الآباء حول مصير الأطفال الذين يموتون بدون معمودية[١]. والنماذج من آراء الآباء مقدمة لنيافة الأنبا بيشوي بشكل خاص.

اكليمنضس السكندري: "كيف يمكن لمن لم يرتكب خطية أن يقع تحت لعنة آدم أو يعاقب عليها" (المتنوعات ٣: ١٦ الآباء اليونانيين مجلد ٨: ١٢٠١).

أثناسيوس الرسولي: "كثيرون جُعِلوا مقدسين وتطهروا من كل خطية مثل أرميا الذي تقدس من بطن أمه ويوحنا المعمدان الذي كان لم يزل بعد في رحم أمه ركض بابتهاج عند سماعه صوت مريم والدة الإله، إلَّا أنه على الرغم من ذلك ملك الموت من آدم إلى موسى" (ضد أريوس ٣: ٣٣ الترجمة الانجليزية ص ٤١١ الآباء اليونانيين مجلد ٢٦: ٣٩٣).

---

(١) راجع في ذلك دراستنا بعنوان: التمييز بين العقيدة والهرطقة والرأي. وكذلك مقالة لنا بعنوان: حول مصير الأطفال الذين يموتون قبل المعمودية، وكليهما منشورتين على موقع: www.coptology.com

وفي الإجابات القانونية لأثناسيوس الرسولي المعروفة باسم أسئلة انطيونوس وهي موجودة في أغلب الأديرة القبطية وفي مكتبة البطريركية، **يقول اثناسيوس** عن الأطفال غير المعمدين: "إنهم لا يمجَّدون ولا يعاقَبون لأنهم لم يرتكبوا خطية" (الآباء اليونانيين مجلد ٢٨: ٦٦٩) وهذه الفكرة معروفة في تاريخ العقيدة تحت الاسم اللاتيني *Limbo Pueroram*

ديديموس الضرير يقول في شرحه على إنجيل يوحنا: "مصير الأطفال الذين يموتون بدون معمودية يعرفه الله وحده، لأنهم لا يعرفون الشر من الخير وغير قادرين على الخطية أو الفضيلة" (شرح انجيل يوحنا ٥: ٢٩ الآباء اليونانيين مجلد ٣٩: ١٦٤٨).

القديس كيرلس السكندري في رده على سؤال الشماس انثيموس:

* الأطفال الصغار إذا ماتوا قبل أن ينالوا المعمودية هل يدخلون الملكوت؟

– "حقاً لأن الملكوت هو لهم، لأنهم عندما تكوَّنوا في بطون أمهاتهم قد حُسبوا للملكوت. وبالإضافة إلى ذلك إذا كان الجذر مقدساً هكذا تكون الأغصان"[١].

وعن حالة البراءة التامة للأطفال يمكن مراجعة عظة **الأنبا شنودة رئيس المتوحدين** التي نشرها *K. Kuhn* في *Csco* مجلد ٢٩ ص ٥ وعبارات مماثلة **للبطريرك ميخائيل** (عام ٧٦٨).تاريخ البطاركة لإبن المقفع (مجلد ٥: ١٣٦)، ونفس التعليم عند **البطريرك بنيامين الأول** في العظة التي نشرها *Muller*.

غريغوريوس النزينزي يعلِّم بعدم معاقبة الأطفال إذا ماتوا بغير معمودية، وبعدم تمجدهم أيضاً (مقالة ٤٠ على المعمودية فقرة ٢٣ الترجمة الانجليزية ص ٣٦٧).

---

(١) نشر البردية العالم Crum وحققها وعلق عليها العالم Ehrard في المجلد:

Der Papyrus Codex Saec VI - VII Der Phillipus Biblio thek.

غريغوريوس النيسي الذي كتب مقالة كاملة عن "موت الأطفال المبكر"، وهو مثل **اكليمنضس السكندري** يذكر أن الأطفال يولدون بخطية آدم ويقول إن المسيحي الصاعد من مياه المعمودية مثل طفل وُلِدَ لتوه من بطن أمه. (مقالة معمودية المسيح. الآباء اليونانيين مجلد ٤٦: ٥٧٩) ويؤكد غريغوريوس أن الأطفال غير المعمدين لا يعاقبون ولا يمجدون مثل سميه (مجلد ٤٦: ١٧٧).

ويمكن أن يضاف إلى ذلك رأي **اوريجينوس** الذي اعتقد بأن الكل سوف يخلص في النهاية.

وهكذا يختلف الآباء حول هذه المسألة التي لا يوجد بشأنها تحديد عقيدي بالمرة. كما اختلفوا أيضاً عن نوع وتأثير خطية آدم على الجنس البشري، وأصل النفس البشرية، والزيجة، وموضوعات أخرى لا مجال لذكرها الآن.

ومن هذا يظهر بكل وضوح أن هناك مسائل يمكن أن تتعدد فيها الآراء، وأن تختلف طالما أن الكنيسة تركت مجال الاجتهاد في هذه المسائل. وهذا هو أعظم درس ومثال يقدمه الآباء لنا دون أن تصبح هذه الآراء هرطقات؛ لأن الآباء لم يحرِّموا الذين اختلفوا معهم إلَّا حينما كان الخلاف يؤدي إلى انكار عقيدة من العقائد، وليس خلافاً على تفسير لإحدى العقائد.

أخطاء عقائدية شائعة لا يدرك قائلوها أنها تقترب من الهرطقات القديمة

إن مراجعة ما لدينا من كتب على كتابات الآباء هو أمر ضروري جداً لسلامة الإيمان الارثوذكسي. ولعل أفضل مثال يحضرني في هذه المناسبة هو التفسير الشائع عندنا لعقيدة الثالوث بأنه: ذات – عقل – روح (حياة) والقاعدة اللاهوتية التي تركها لنا الآباء هي: الثالوث جوهر واحد وثلاثة أقانيم متمايزة. وهذه نقطة لا تحتاج لاقتباسات من كتابات الآباء.

فإذا كان الله ذات وعقل وروح .. والآب هو الذات والابن هو العقل والروح القدس هو الحياة فأين الثالوث هنا[١]؟

أولاً: حلَّ الآب محل الجوهر الواحد، أي أن الآب هو الذات. والجوهر أو الذات مشترك بين الأقانيم الثلاثة أي أنه ليس أقنوماً، وبالتالي يصبح في الله أقنومين فقط .. الابن العقل والروح القدس الحياة.

ثانياً: لو قلنا بأن العقل والحياة هي صفات في الذات الإلهية، فإن القاعدة اللاهوتية ترغمنا على اعتبار أن هذه الصفات متمايزة، وبالتالي تصبح كل صفة من صفات الله متمايزة، وهذا يعني أننا في الواقع نؤمن بأكثر من ثلاثة أقانيم.

ثالثاً: حاول نيافة الأنبا غريغوريوس أن يتفادى ذلك واعتبر أن الأقنوم هو صفة ذاتية بدونها تنعدم الذات الإلهية. ومع ذلك تظل المشكلة السابقة قائمة؛ لأن الصفات الذاتية التي بدونها تنعدم الذات الإلهية ليست فقط العقل والحياة، وإنما أيضاً المحبة التي تميِّز الله، وكذلك القدرة .. الخ.

وأنا أعتقد بعد دراسة ما كتبه الآباء عن الثالوث أن تفسير الثالوث الشائع عندنا منذ يحيى ابن عدي هو تفسير فلسفي بحت لا علاقة له بما في اللاهوت المسيحي من اعلانات عن الله. وأعتقد أن تفسير الثالوث بذات وعقل وحياة ليس إلَّا صورة معدلة لهرطقة سابليوس وأن الذين يشرحون الثالوث على هذا النحو لا يدركون أنهم – بحسن نيةٍ– يحطِّمون الايمان. هذا التعليم يطلق عليه الآن هرطقة ***Modalism*** أي الصورة المعدلة لهرطقة سابليوس.

رابعاً: لقد قبلت الكنيسة الجامعة قاعدة لاهوتية واحدة، وهي التمايز بين الأقانيم في جوهر واحد؛ لأن هذه القاعدة تجعل الله روحاً بسيطاً غير قابل للتركيب. أمَّا

---

(١) راجع دراستنا عن هذا الموضوع بعنوان: الثالوث، هل هو صفات الوجود والعقل والحياة؟ منشورة على موقع: www.coptology.com

التمايز بين صفات الله واعتبار أن بعض صفات الله جوهرية وصفات أخرى عرضية، فهو قائم على فلسفة أرسطو وأفلاطون، كما شرحها علماء المسيحية مثل يحيى بن عدي وغيره .. ولكن ما هو العرضي في الله؟ وكيف تكون المحبة والرحمة صفتان عرضيتان .. أليس هذا هو التعليم بالتركيب في الذات الإلهية؟

خامساً: ولو كان الله هو ذات وعقل وحياة .. فكيف يصبح الإنسان في المسيحية ابناً لله؟ .. فالإسلام وغيره من الديانات لا تمانع في أن يكون الله له ذات وعقل وحياة، ولكن الأشاعرة أتباع أبو موسى الأشعري، جعلوا الصفات الذاتية سبعة، فهل يصبح الفرق بين المسيحية والأشاعرة هو فرق على عدد صفات الله؟ .. وماذا عن الخلاص والتبني؟ هل يمكن أن نقول يوحنا ٣: ١٦ على هذا النحو: "أحب ذات الله العالم حتى بذل عقله .. الخ"، وهل يصبح الإنسان ابناً للذات بواسطة العقل الإلهي؟ .. أليس هذا في النهاية هو تعليم وحدة الوجود ***Pantheism*** لأن تمايز أقانيم الثالوث في الجوهر الواحد هو الذي يحفظ كيان الإنسان من الذوبان في الله؛ لأن الله نفسه يحفظ أقانيمه (إذ جاز القول) من الذوبان أو الاختلاط .. ولكن ماذا يبقى من الثالوث إذا كان الآب هو الذات والابن هو العقل والروح القدس هو الحياة، وتصبح الأقانيم صفات مجردة؟ .. إن الذات والعقل والحياة تعليم فلسفي يمكن لغير المسيحيين أن يقبلوه؛ لأنه يقضي على الخلاص الذي يعلَن ويُوهَب في عمل أقانيم الثالوث. وإذا تحول الله إلى ثلاثة صفات ذاتية أو جوهرية، فإننا يجب أن نغلق الكتاب المقدس –لا سيما العهد القديم– حيث يعلن الله ذاته بقوله: "أنا الرب"، وتصبح هذه "الأنا" بلا معنى لأن الله لا يعلن عن ذاته إلَّا إذا كان شخصاً، وله ما يؤهله لأن يكون شخصاً.

سادساً: ويبدو لي أن الذين حاربوا الشركة في الطبيعة الإلهية كانوا فعلاً منطقيين مع أنفسهم وعلى قدر كبير من الذكاء .. ذلك أنه إذا تحولت أقانيم الثالوث إلى صفات جوهرية فإن اشتراك الإنسان في صفات جوهر الله هو فعلاً أمر مستحيل، أمَّا إذا تمايزت أقانيم الثالوث في وحدة الجوهر، فإن اشتراك الإنسان فيما يعطى بواسطة الأقانيم المتمايزة مع بعضها والمتمايزة في الجوهر الإلهي يمنع الإنسان تماماً من الاشتراك المطلق في الله،

ويحدد اشتراك الإنسان بما يُوهَب فقط بواسطة الثالوث؛ لأن الثالوث نفسه يشترك في كل الصفات الالهية ويحفظ كل أقنوم صفته الأقنومية الخاصة به، مما يجعل أي طبيعة غريبة عن طبيعة الثالوث مثل الإنسان، غير قادرة على أن تشترك في الله إلَّا بالقدر المتاح لها، ذلك أن كل أقنوم يعمل بما يتميز به من صفة أقنومية، وما يتميز به من صفة أقنومية ليس هو الجوهر الالهي الذي يظل سراً مخفياً لا يمكن الاشتراك فيه أو إدراك طبيعته.

لكن ما أعظم الفرق بين تعليم الشركة في الطبيعة الإلهية على أساس التقليد والتعليم الصحيح للثالوث، والشركة في الطبيعة الالهية على أساس أن الأقانيم صفات جوهرية في الله.

وهناك موضوعٌ آخر لا يقل أهمية عن موضوع الثالوث، وهو شرح خطية آدم الذي كُتِبَ ونُشِرَ في أكثر من كتاب، والذي يقال من على منابر الكنائس، والذي يمكن سماعه في أشرطة تسجيل لبعض الأساقفة الأفاضل. وعندنا في الكنيسة القبطية الآن مَن يعلِّم بتعليم ماني دون أن يدري، والموضوع برمته يحتاج إلى مراجعة تامة وشاملة.

يميز علماء اللاهوت والأرثوذكس بشكل خاص بين الاتجاهات التالية الخاصة بخطية آدم وسقوط البشرية:

أولاً: تعليم الآباء الشرقيين.

ثانياً: تعليم اوغسطينوس.

ثالثاً: تعليم الكنائس الغربية بعد أوغسطينوس، لا سيما في العصر الحديث.

تعليم الآباء الشرقيين

١- يعلِّم جميع الآباء بأن الخطية الأولى هي فقدان الشركة مع الله، وهذا يعني ضياع النعمة وتشويه الصورة الإلهية في الانسان.

٢- كما يعلِّم جميع الآباء بأن البشرية فقدت النعمة الإلهية، وهذا جعل الطبيعة الانسانية قابلة للموت بمعناه الروحي والجسدي، وعدم وجود الروح القدس في الطبيعة الانسانية يعني أن تصبح ميول الإنسان الطبيعية متجهة نحو الذات الانسانية وليس نحو الله.

٣- يعلِّم الآباء بأن الانسانية لم ترث ذات ذنب آدم، وتعبير الخطية الأصلية والذنب الأصلي غائب تماماً كتعبير وكمحتوى. والعبارات الشائعة عند الآباء في الشرق هي: الخطية الأولى - الخطية القديمة.

تعليم أوغسطينوس

١- ينفرد أوغسطينوس بقوله بأن البشرية ورثت ذنب آدم، وأنها ترث هذا الذنب *Original Guilt* بل أن هذا الذنب ينتقل بالزواج من الوالدين وهو ما يشرحه في المقالة المشهورة *(Nupt. et. Cencup 2:36)*.

٢- اختلف أوغسطينوس عن المانويين في انكاره لوجود إله للشر، وفي انكاره لفساد الزواج أو أن الزواج من صنع إله الشر، ولكنه اتفق مع المانويين في أن الزواج هو الوسيلة التي بها ينتقل ذنب آدم من جيل إلى جيل.

نظرة علماء اللاهوت الأرثوذكس في العصر الحديث

في إيجازٍ شديد سجَّل أغلب علماء اللاهوت الارثوذكس أن أوغسطينوس الذي كان مانوياً أصلاً، لم يسجل تقليد الكنيسة الشرقية ولا عرفه بالمرة.

أولاً: لو كانت الخطية وراثية، فهذا يعني أنها جزء من النظام الذي خلقه الله؛ لأن قانون الوراثة أيَّاً كان تفسير الوراثة، هو من صنع الخالق وليس من صنع الانسان. وبالتالي هذه عودة إلى تعليم ماني لأن الله يصبح هو خالق الأداة التي ينتقل بها الشر.

ثانياً: لو كانت سقطة الإنسان الأول هي التي جعلت الخطية جزء من قانون الخليقة، وأن الزواج هو الذي ينقل خطية آدم من جيل إلى جيل، لأصبح من الضروري أن نعلِّم: بضرورة عدم الزواج .. أي العودة إلى تعليم ماني في تحريم الزواج.

ثالثاً: لو أن الخطية جزء من كيان الإنسان المادي، وأنها تورَّث لأصبح من الحتمي الوقوع في هرطقة مقدونيوس، أي التعليم بأن النعمة مخلوقة، وهو ذات تعليم الهرطقة الآنومية. فالإنسان –حسب تعليم ماني وأوغسطينوس– يمكن أن يُفتدى إذا غيَّر الله القانون الذي يسوس العالم، ولا يصبح الإنسان محتاجاً إلى النعمة غير المخلوقة.

رابعاً: لو كان ذنب آدم وراثياً وترثه الخليقة، فهذا يعني أنها ترث النعمة أيضاً، وأن النعمة بدورها وراثية، أو أن الإنسان يرث أيضاً الصلاح، أي أنه في الواقع مكون من طبيعتين واحدة شريرة والأخرى صالحة وكلاهما يعمل وراثياً، وهذا هو عين تعليم ماني وهرطقات الغنوسية.

خامساً: إن الخطية الأولى تعني غياب النعمة فوق الطبيعة، وهو الغياب الذي يجعل أكثر الناس صلاحاً يميل إلى الشر منذ لحظة تكوينه؛ لأن الطبيعة الانسانية تتكون بدون أن يكون لها علاقة بالله. وهذا هو العنصر الحاسم الذي جعل مجيء ابن الله وتجسده هو الوسيلة الوحيدة لرد النعمة فوق الطبيعة إلى الانسان. وهذا هو نفسه الذي يجعل استحالة وراثة النعمة؛ لأنها عطية إلهية وليست شيئاً مركَّباً في الطبيعة الانسانية.

عودة إلى المراجع

كان نيافة الأنبا غريغوريوس هو أول من قدَّم رأي أوغسطينوس بشكل منظم معتمداً في ذلك على الكتاب الدراسي الذي أشرنا إليه سابقاً عن تاريخ العقائد المسيحية لمؤلفه *Bethune - Baker*.

وكان من الضروري أن يكمل نيافته العمل الذي بدأه بترجمة لكتاب آخر يشرح رأي آباء الكنيسة الشرقية ويقدم الصورة العامة بكل تفصيل عند كل واحد من الآباء وهو المرجع العلمي الدقيق:

N. P. Willams "The Ideas of the Fall and of Original Sin.

أو المرجع المعاصر الذي صدر في عام ١٩٧٣ لعالم اللاهوت الكاثوليكي:

Henri Rondet "Original Sin" the patristic and theological background.

إن تطور البحث في هذه الموضوعات يتم بصورة طبيعية وعلى أيدي أجيال متعاقبة من الدارسين؛ لأن كليات اللاهوت تخضع لنظام علمي دقيق يتم فيه مراعاة قواعد البحث العلمي وتطور المراجع وتحسين الكتب الدراسية، وكل هذا يحتاج إلى مناخ الحرية والتشجيع وانعدام الارهاب الفكري أو تسليط سيف القطع والحرمان والطرد من هيئة التدريس، وقد قام الأساتذة الأرثوذكس مثل *V. Lossky* أو *Karmiris* بحركة تصحيح شاملة للمراجع الأرثوذكسية في هذا الموضوع بالذات وفي غيره من الموضوعات اللاهوتية .. وطبعاً علينا أن نسأل متى وكيف يجيء دور معاهد اللاهوت الارثوذكسية في الشرق العربي وفي مقدمتها الاكليريكية؟

لقد سارت حركة التطور في معاهد اللاهوت الارثوذكسية سيراً حسناً؛ لأن أحداً لم يتهم الباحثين بالهرطقة أو البروتستانتية أو غيرها من الاتهامات. كان الاحتكام لتعليم الآباء وإلى نصوص الآباء هو المرجع الأساسي الذي تحكم في سير البحث عند غيرنا .. ولذلك سارت الأمور بطريقة علمية وجاءت النتائج بأفضل ما يمكن الوصول إليه وهو تسليم الآباء.

القسم الثالث

كيف عالجنا الاختلافات اللاهوتية

من تاريخ الهرطقات وتاريخ المجامع نعرف أن الكنيسة الجامعة كانت تعالج جميع الخلافات اللاهوتية في المجامع المكانية أو المسكونية. فما هي المجامع أو الندوات التي عقدناها لبحث الاختلافات اللاهوتية؟ سؤال أتركه بلا إجابة؛ لأن الإجابة عليه تعني أن نسأل سؤالاً آخر: لماذا لا نسلك حسب القواعد الثابتة في التقليد الكنسي عندما تظهر لدينا بعض الآراء أو الأفكار أو الاختلافات اللاهوتية؟

الرسامة لا تعني معرفة كل شيء:

كانت الهرطقة المونتانية هي أول من قال بأن الإنسان متى نال الروح القدس (أو روح مونتانوس) صار لا يحتاج إلى الاطلاع على الأسفار المقدسة أو التسليم الرسولي؛ لأن الروح القدس يجعله يعرف كل الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة. وهنا يجب أن نسأل: هل الرسامة للاسقفية، أو غيرها في الكنيسة القبطية تعني أن الأسقف يعرف كل شيء حتى إذا لم يدرس آباء الكنيسة؟ .. هل ستقع الكنيسة القبطية فيما يشبه هرطقة مونتانوس، عندما يدَّعي كل مَن رُسِمَ أسقفاً أو قساً بأنه قادر على الحكم في المسائل العقائدية والتاريخية .. الخ. التي لم يدرسها بالمرة ولمجرد أنه أسقف أو كاهن؟

وإذا كانت الدرجة الجامعية في الطب والزراعة .. الخ. تؤهل الإنسان للعمل الذي تخصص فيه، فما هي الدرجة الكنسية التي تؤهِّل للرسامة؟ وما هو القدر أو المستوى المطلوب من المعرفة اللاهوتية ليكون الإنسان أسقفاً أو قساً أو شماساً.

لقد كان حلم الأستاذ حبيب جرجس هو أن تصبح الاكليريكية الحلقة الأساسية التي تكمِّل مدارس الأحد. فهل تحقق ذلك؟ إننا يجب أن نبحث عن الاسباب التي أدت إلى تعطيل ذلك.

ماذا يعني انعدام الحوار وإطلاق الاتهامات؟

إذا لم تحرص الكنيسة على أسلوب الحوار والبحث، فهذا يعني أن الحياة الكنسية مقبلة على الجمود أو الشلل، وهو ما يجعل الكنيسة غير قادرة على التعامل مع الأفكار الحديثة أو مواجهة النقد الذي يوجَّه إلى العقيدة المسيحية من خارج الكنيسة.

لقد كان اسلوب التشهير وإطلاق الشائعات والاتهامات الشفوية هو السائد في السنوات الماضية. هذا أسلوب غريب على المسيحية وغريب على الارثوذكسية التي تعتبر أن مبدأ عقد المجامع هو مبدأ إلهي ورسولي، وأن حق الدفاع عن النفس أمام مجمع هو حق مقدس ممنوح من الله. وماذا يعني توجيه الاتهامات الشفوية وحرمان المتهم من حق الدفاع عن نفسه، وهو الحق الذي تفتخر به جميع الأنظمة السياسية؟

كيف يمكن أن تصبح الكنيسة صورة تامة لأسوأ ما في المجتمع الذي تعيش فيه والذي يعيش على الاتهامات ولا يوفر حق الدفاع إلَّا للقادر الذي تسنده قوى اجتماعية معينة أو لمن يلجأ إلى المحاكم؟

لا أريد أن أسترسل في وصف الأخطار التي تحيط بالكنيسة من الداخل عندما أصبح من السهل توجيه الاتهام، وبالتالي من السهل إصدار الأحكام، ومن السهل قتل حق الدفاع عن النفس .. كيف يمكن أن تنجب الكنيسة علماء ورجالاً يدافعون عن

تعليم عقائدها، وحرية الرأي غير مكفولة في داخل الكنيسة نفسها، وأيديهم مغلولة إلى اعناقهم..؟!!

وهنا أسوق مثالاً واضحاً على ما ذكرت، وهو خطأ العلامة اوريجينوس في التعليم بالخلاص العام.

خطأ العلامة اوريجينوس في التعليم بالخلاص العام

كان أول من أشار إلى هذا الموضوع هو القمص تادرس يعقوب في كتابه "آباء مدرسة الإسكندرية الأولون" الذي صدر في عام ١٩٨٠ وذكر ما جاء في كتاب المبادئ "لذلك ففي النهاية تعود كل الخليقة إلى أصلها في الله، إذ تخلص كل البشرية ويكون للعقوبة الأبدية نهاية. حتى الشيطان أيضاً –في نظره– يخلص .. إذ تكون النصرة الأخيرة للخير" ص ٢٣٣.

وقد ذكر القمص تادرس يعقوب أنها أحد أخطاء اوريجينوس واكتفى بذلك دون أن يدخل في التفاصيل، وبشكل خاص اعتراضات بعض الآباء على تعليم اوريجينوس مثل اعتراضات ذهبي الفم وكيرلس الكبير.

في مصر انقسم الرأي عندنا إلى دفاع تام وأحياناً بلا فحص عن اوريجينوس، أو هجوم تام وأيضاً بلا فحص على اوريجينوس. بينما الموضوع في حقيقته أن اوريجينوس أصاب في أشياء وأخطأ في أشياء. وإننا يمكن أن نأخذ ما هو جيد ويتفق مع التقليد، ونترك الاشياء التي لا تتفق مع التقليد، وهو الموقف السائد في كل معاهد اللاهوت الارثوذكسية. كيف يمكن تجريم شخص عَرَضَ لرأي اوريجينوس، وكيف يمكن أن يحذف رد كيرلس الكبير على اوريجينوس، ويؤخذ رأي اوريجينوس على أنه رأي من يحاضر عن اوريجينوس؟

إن المنهج العلمي يقتضي بحث الموضوع برمته من كل زواياه .. فالصواب الواضح في رأي اوريجينوس الخطأ، هو أن الله لا يعاقب لكي ينتقم ويتشفى .. فالانتقام أو التشفي هو احدى صفات الانسانية الساقطة. وبالتالي ماذا يكون العقاب إذن، وما هو دوره؟ الاتفاق العام عند كل الآباء هو أن العقاب يُظهِر صلاح الله. اوريجينوس والنيسي وديديموس الضرير قالوا إن العقاب يشفي في النهاية ويعيد البشرية الخاطئة لله .. ومن هنا وُلدت هذه النظرية التي يطلق عليها اسم الخلاص الشامل أو *Apocatastasis* راجع:

The Oxford Dictionary of the Christian Church. p 67.

والموضوع سبق أن نوقش على مجال واسع في الكتب التي صدرت عن اوريجينوس والنيسي وديديموس وإيفاجريوس، وهذه المجموعة من الآباء لم يُحكم عليها رسمياً، إلَّا في المجمع المسكوني الخامس، أي بعد انشقاق خلقيدونية، وقد أسقط المجمع اسم النيسي بشكل خاص بسبب استخدام مؤلفاته في محاربة النسطورية والأوطاخية واليعاقبة أو أصحاب الطبيعة الواحدة.

وحتى القس الأنجليكاني المعروف فارار، مؤلف كتاب "حياة المسيح" الذي ترجمه د. عقداوي أصدر بحثاً وافياً عن الموضوع بعنوان *Dr. Farrar "Enternal Hope* دافع فيه عن رأي اوريجينوس. وهو ما دعى مؤلف آخر أكثر اطلاعاً على مؤلفات الآباء بأن يرد عليه في كتاب آخر بعنوان:

Dr. Pusey "What is the faith as to everlasting punishment

ذكر فيه آراء الآباء في أبدية العقاب. ولا يوجد قاموس أو دائرة معارف –مهما كانت– تهتم بقضايا اللاهوت الشرقي وتعليم الآباء إلَّا وفيها مقالة أو أكثر عن موضوع الخلاص الشامل. فهل مجرد عرض الموضوع في مدرج الكلية الاكليريكية جريمة؟! أم أن الجريمة هو حذف الرد على اوريجينوس الذي قِيل في نفس المحاضرة.

وهل لدينا تعليم في المسيحية يجعل من الإنسان –أي إنسان– القاضي والديان لجميع الخليقة لكي يحدد في محاضرة مَن الذي سيخلص ومن الذي لن يخلص؟ هل يوجد لدينا من يمكنه الإدعاء بأنه يعرف مصير الناس جميعاً؟ أليس هذا تجديفاً؛ لأن قائل هذا الكلام قد جلس على عرش الديان العادل الذي لم يحكم بعد على أحد جاعلاً الحكم إلى يوم الدينونة أو اليوم الأخير حسب اعتقاد أغلب الكنائس الارثوذكسية والإنجيلية؟

وإذا خرج الموضوع من بين جدران الكلية الإكليريكية وظهر على صفحات مجلة الكرازة بالشكل الذي ظهر به .. دون مناقشة ودون محاولة للتحقق من الكلام الذي قيل، ودون سؤال المحاضر عن سبب عرض وجهة نظر اوريجينوس، ودون سؤاله عن رأيه في كلام اوريجينوس .. فماذا يصبح الهدف من طرح موضوع لا يعرفه إلَّا القلة من الناس، وكتب عنه القمص تادرس يعقوب دون أن يذكر رأي الآباء فيه؟ .. ماذا كان الوجه العلمي والروحي لهذا التصرف؟ .. وما هو المطلوب من إثارة الموضوع خارج مكان العلم والدراسة وهو الاكليريكية؟

إننا إزاء موقف غريب وخطير جداً على الكنيسة القبطية ..

أولاً: إذا تحول الشعب إلى حَكَم في المسائل العقائدية أو المتصلة بالعقيدة، فالنتيجة هي انقسام الكنيسة وكثرة الشكوك.

ثانياً: إن عرض هذه الموضوعات أو مثلها على الشعب يعني بكل وضوح رفض الأسلوب الروحي والعلمي المتبع في كل بلاد الدنيا، وهو الندوات العلمية التي سبق وأشرنا إليها.

ثالثاً: وحتى أخذ آراء طلبة وطالبات الإكليريكية، هو أيضاً موقف لا يتفق مع قواعد البحث العلمي، ذلك أن البحث العلمي ليس هو الحصول على موافقة الأغلبية، بل طرح البراهين والأدلة.

ما هو الهدف من كل هذا؟ وكيف يمكن أن تتحول حرمة وقداسة البحث العلمي إلى طلب كثرة الأصوات والأنصار؟ هل هذا هو الأسلوب المتبع في المعاهد العلمية أو كليات اللاهوت؟

إن المرء يملك أن يقول كلاماً كثيراً، ولكن يا ترى ما قيمة الكلام طالما البحث جريمة، وان التصدي لأخطاء وقع فيها بعض معلمي الكنيسة ممنوع، وأن الحكم النهائي هو للجماهير سواء توفرت لديها المراجع العلمية أو الكتب الدراسية أم لا؟

أمَّا ما يجب أن أسجِّله هنا، هو حذف الرد على العلامة اوريجينوس، وهو الرد الذي صاغه القديس كيرلس السكندري مفنِّداً رأي اوريجينوس ورأي كل الذين تشيعوا له وهو الرد الذي قيل كتعقيب على رأي اوريجينوس. كيف يمكن أن يحدث ذلك، وكيف يمكن أن ينسب تعليم اوريجينوس إلى كاتب هذه السطور لمجرد أنه أشار اليه؟

القسم الرابع

الكنيسة القبطية والحركة المسكونية

تفرض الحركة المسكونية علينا مسئولية إعادة النظر فيما قيل عن المذاهب المسيحية، لا سيما تلك المنتشرة في مصر، ومسئولية وجود هذه المذاهب تقع على عاتق الكنيسة القبطية الارثوذكسية.

وعندما احتفلت الكنائس الكاثوليكية والانجيلية والأرثوذكسية في الخارج بذكرى ميلاد لوثر. فقد تميَّزت هذه الاحتفالات بعرض نتائج الحوار والدراسات اللاهوتية.

أمَّا في مصر، فإننا لا نزال نخلط بين الكنيسة الانجيلية والكنيسة اللوثرية، والفرق بين الاثنين شاسع، كما أننا لم ندرس علاقة لوثر بالقديس اوغسطينوس، وتمسك لوثر بما جاء عند اوغسطينوس، كان هو بداية الصراع ضد لاهوت العصر الوسيط الذي ساد في الغرب.

إن وجودنا في الحركة المسكونية يفرض علينا دراسة علمية وتاريخية للمذاهب المسيحية، ومن واقع الكتب الرسمية التي تملكها هذه المذاهب، وليس من خلال المؤلفات التي كُتِبَت ضد هذه المذاهب؟ كما أننا يجب أن نتمسك بمنهج الآباء في التمييز بين الهرطقة والعقيدة والرأي؛ حتى يمكن إقامة حوار لاهوتي سليم. والتقليد الكنسي لا يعرف شيئاً يسمى بالخطأ اللاهوتي، وإنما يعرف العقيدة والهرطقة والرأي، ولذلك ما يقال عندنا إنه خطأ لاهوتي إمَّا أنه رأي، وإمَّا أنه هرطقة.

والهرطقات هي محتوى كامل يُعيد تفسير الإيمان، وينكر العقيدة. وقد تبدأ الهرطقة كرأي، ولكن بعد النقاش العلني وتقديم البراهين من التقليد الكنسي والكشف عن خطورة الرأي، يصبح الرأي هرطقة بعد المحاكمة وتمسُّك صاحب الرأي برأيه. هذا هو الوضع الكنسي الذي يجعلنا قادرين على أن نتحرك بحرية في الحركة المسكونية.

هل الهرطقة كلمة أم عبارة أم فكرة؟

لم نسمع في تاريخ الكنيسة عن هرطقة قامت على كلمة، أو حتى تفسير كلمة. وحتى قبل الحكم الرسمي على الأريوسية والاستعمال الرسمي لعبارة "الواحد مع الآب في الجوهر"، كانت الأريوسية هرطقة رغم أنها لم تكن محددة بكلمة ولا حتى بعبارة؛ لأنها كانت فكرة تنكر الثالوث والتجسد.

كيف يجمع هذا الجيل معلوماته عن الهرطقات؟ من أين؟ وما هي المصادر العلمية العربية أو غيرها الخاصة بجلسات المجامع المسكونية والمكانية التي يعتمد عليها هذا الجيل؟

كيف تَعلَّم هذا الجيل اسلوب الحكم على الهرطقات؟ هل كانت النسطورية – كما يشاع– رفضاً لكلمة والدة الإله، أم أنها كانت أصلاً رفضاً للاتحاد ورفضاً لعقيدة التجسد، وجاء انكار عبارة "والدة الإله" تجسيداً لحقيقة هذا الرفض؟ انني أصبحت أخشى على الجيل الجديد الذي يرى شيئاً غريباً على روح الأرثوذكسية وتاريخها وعقائدها وحياتها الطقسية والروحية، وهو أن يُعلن أن فلان أو فلان هرطوقي لمجرد أنه يستخدم كلمة أو عبارة.

المسألة هي محاولات تلطيخ سُمعة البعض وإثارة شكوك الناس فيما يكتبون، والدليل الدامغ على ذلك هو أن هذه الشكوك تقال وتلقن للناس شفوياً دون أن يكون لأي من هؤلاء الشجاعة المسيحية على أن يمسك بالقلم لكي يكتب ويسجِّل رأيه من التقليد الكنسي أو يدافع بقلمه عن تعليم الكنيسة.

والظاهرة التي يشهد بها التاريخ المعاصر، هي تأخر صدور الكتب الأرثوذكسية التي تشرح العقيدة الارثوذكسية، وترد على الأخطاء أو الهرطقات التي وقع فيها البعض. لماذا لم تظهر هذه الكتب؟ ولماذا نكتفي بالشائعات؟ .. هذه هي الروح التي سوف يتركها هذا الجيل للأجيال القادمة؟ يا ويل الكنيسة القبطية إذا اعتمدت على هذا الأسلوب.

حقائق ثابتة من كتب التاريخ:

كان أول من كتب عن الأسرار الكنسية باللغة العربية هو الأستاذ عريان مفتاح، وبعد ذلك الأستاذ حبيب جرجس، ثم توقفت الكتابة تماماً بعد ذلك. لم تدخل مادة آباء الكنيسة الكلية الاكليريكية. ولم تظهر ترجمات الآباء إلى اللغة العربية. فتوقف البحث تماماً.

عندما كتب الأستاذ حبيب جرجس كتابه عن الأسرار، فقد كان في الواقع ينقل النظام اللاهوتي *System* الغربي الذي ورثته مدارس اللاهوت الغربية عن مجمع ترنت الذي عُقد في القرن السادس عشر. والدليل على ذلك أنه كلما أعوزه اثبات المرجع الذي يعتمد عليه في تأكيد ما يعلِّم به، تراه يعود إلى قرارات مجمع ترنت.

ويوجد فرق كبير بين كتاب الأستاذ حبيب جرجس وكتاب مماثل للعالم اليوناني الراحل ترمبلاس. ويوجد فرق بين النظام اللاهوتي الأرثوذكسي السائد في كافة معاهد اللاهوت في الارثوذكسية والنظام اللاهوتي الذي أخذناه عن الأستاذ حبيب جرجس. ذلك أن تعليم الآباء في القرون الخمسة الأولى غاب عن كتب اللاهوت الغربية طوال العصر الوسيط، وعاد إليها فقط في القرن العشرين. وجدد الكاثوليك والأرثوذكس كتبهم تماماً بالعودة إلى تراث الآباء، أمَّا عندنا، فقد توقفت المسيرة تماماً، والدليل هو بقاء كتاب الأستاذ حبيب جرجس كما هو دون أن يتضمن هذا الكتاب خلاصة أقوال أثناسيوس وكيرلس الكبير، وحتى الآباء النساك المصريين.

لقد غابت عن كنيستنا إنجازات الكنائس الارثوذكسية لأسباب كثيرة، أهمها بلا شك، العنصر الثقافي، وهو عدم توفر الذين يقرأون اليونانية القديمة أو الحديثة أو اللغات الأوروبية، وعندما تفجَّر الجدل حول الأسرار في الغرب، وهو موضوع لا نعرف عنه في مصر إلَّا القليل، كانت الكنائس الشرقية غائبة؛ لأن الجدل كان غربياً وبأداة فلسفة أرسطو ولاهوت العصر الوسيط.

وقد عرف الشرق هذا الجدل مع بداية حركة الارساليات في القرن الثامن عشر وليس قبل ذلك. وعندما دخل علماء اللاهوت الارثوذكس في مجال لاهوت الأسرار في القرن العشرين، فقد سجَّلوا في كل كتبهم الاعتراف الصريح والواضح بأن الكتب الارثوذكسية التي وضعت في القرنين ١٨، ١٩ كانت تنقل عن المصادر الكاثوليكية دون أي اهتمام بما استقر في التراث الشرقي. وحصر علماء اللاهوت الارثوذكس هذا في النقاط التالية:

أولاً: المصطلحات اللاهوتية عند الآباء الشرقيين هي غير المصطلحات اللاهوتية عند توما الأكويني وغيره من علماء العصر الوسيط.

ثانياً: الذي يحدد الأسرار بشكل سليم هي الليتورجية والخبرة السرية *Mystical* وليس الفلسفة اليونانية التي أدخلت الكثير من الجدل العقلي الذي كان يمكن تجنبه تماماً إذا حُصِرَ موضوع الأسرار في الإطار اللاهوتي فقط.

ثالثاً: ضرورة العودة إلى الآباء حتى يمكن أن ينسجم لاهوت الأسرار مع الحياة الطقسية الأرثوذكسية؛ لأن اللاهوت الغربي الذي تكوَّن في العصر الوسيط لا ينسجم مع الليتورجية الشرقية بسبب اختلاف المنابع، واختلاف الخبرة، واختلاف الصياغة اللاهوتية.

كل هذا قد تحقق في معاهد اللاهوت الأرثوذكسية في الخارج، ما عدا الاكليريكية. ونظرة شاملة على كتاب الأستاذ كارميرس اليوناني أو مؤلفات الكسندر أو غيره تؤكد ذلك.

عودة إلى قضية المراجع العلمية والبحث اللاهوتي:

إن الدراسات اللاهوتية والكتابية تسير بخطى ثابتة في كل معاهد اللاهوت الأرثوذكسية بفضل إنجازات علماء اللاهوت الأرثوذكس وما وفرته كنائسهم من أموال وحرية واستقرار.

ولقد دخل هؤلاء مجالات البحث والحوار مع الكنائس غير الأرثوذكسية، على قاعدة هامة، وهي التمسك بما جاء عند الآباء في الشرق. وقد نشر هؤلاء الاساتذة أبحاثهم باللغات الأوروبية الحديثة. ولكني اسجل هنا بكل أسف وحزن أن هذه الدراسات لم تصلنا في مصر، بل أغلبها غير معروف لنا.

وقد طرح أساتذة اللاهوت الارثوذكسي –وهو ما سوف أُثبته– قضية الإفخارستيا، وقضية الاستحالة السرية، والاستحالة الجوهرية على أساس تاريخي وآبائي، كما أُعيد بحث موضوع الكهنوت وعلى أساس التقليد الشرقي، واستبعاد ما قد دخل التراث الشرقي من لاهوت العصر الوسيط في الغرب.

وهكذا يميِّز اللاهوت الأرثوذكسي بين تعليم الآباء عن الكهنوت، وتعليم العصر الوسيط، بأن تعليم الآباء يقوم على أن المسيح هو الكاهن الواحد الذي يَهِب هذا الكهنوت للأسقف والقس والشماس؛ لكي يخدموا الكنيسة، فليس لدى الكاهن سلطان ذاتي خاص به، وإنما السلطان هو سلطان المسيح وسلطان الروح القدس. هذا هو تراث الشرق الذي تقبله الكنائس كلها الأرثوذكسية والكاثوليكية واللوثرية في العصر الحديث.

وهكذا رفض لوثر مبدأ تعدد رئاسة الكهنوت، تماماً كما رفضه الأستاذ حبيب جرجس في كتاب الصخرة الارثوذكسية (ص ٢٥ – ٣٠). ويقول الأستاذ حبيب جرجس: "وكأني بهم ينسون أو يتناسون أقوال الكتاب التي تعلِّم أن الكنيسة ليس لها إلَّا رأسٌ واحدٌ فقط هو يسوع المسيح الذي له كل سلطان في السماء وعلى الأرض" (ص ٢٦).

ويقاوم الأستاذ حبيب جرجس الخطأ الشائع عندنا، وهو تقسيم الكنيسة إلى كنيستين منظورة وغير منظورة، واحدة يرأسها البابا، والثانية يرأسها المسيح أو العكس. ويمكن مراجعة كلماته القوية في ص ٢٧ من نفس الكتاب حيث ينتهي المقال إلى القول: "والحال أن الكنيسة واحدة فقط، وما ذلك التقسيم إلَّا بحسب الظاهر فلا يوجد إلَّا كنيسة واحدة، ولا يتأتى أن يكون لها إلَّا رأس واحد فمن هو؟ هل هو يسوع المسيح الذي قدَّسها واشتراها بدمه .. أم البابا" الخ.

المسيح هو الكاهن الواحد:

إن لاهوت العصر الوسيط السائد عندنا يحتاج إلى مراجعة على كتابات الآباء. فالكاهن الواحد ربنا يسوع المسيح ليس إلَّا الوسيط الواحد. هذه حقيقة عامة تقبلها كل الكنائس المسيحية، وفي مقدمتها الكنائس الارثوذكسية. والحديث عن الكاهن الواحد هو حديثٌ ذو دلالة روحية وإيمانية بالغة الخطورة ومتصلة بقضية الخلاص اتصالاً مباشراً.

وهكذا سجلت الكنيسة اللوثرية هذه الحقيقة في كتابها الرسمي:

G. Tappert "The Book of Concord.

الذي وضعت فيه عقائدها كلها وأيَّدت كل عقيدة من كتابات لوثر نفسه؛ لكي تقضي على كل الاتهامات التي وُجِّهت إلى لوثر. وبهذا تكون قد سبقت الكنيسة القبطية التي ليس لديها كتاب رسمي واحد يشرح عقائدها مؤيداً كل عقيدة من كتابات آباء الإسكندرية أو غيرهم من آباء الكنيسة الجامعة.

يقول الكتاب السابق ص ٤٧ فقرة ٢ عن كهنوت المسيح ما يلي:

"لا يحاول أحد أن يبرهن على أنه يوجد كاهن في العهد الجديد يقدِّم ذبيحة عن الخطايا، فهذا خاصٌ بالمسيح وحده. هذا التفسير تدعِّمه الرسالة إلى العبرانيين وإلَّا فإننا نكون قد أقمنا وسيطاً، بجانب المسيح لو حاولنا أن نقول إن آخرين يمكنهم أن يقدموا

ذبائح عن الخطية لمصالحة الخطاة مع الله، فالمسيح وحده هو الكاهن الواحد الذي يقوم بهذا العمل".

فالمسيح كاهنٌ واحدٌ، بمعنى أنه وسيطٌ واحد. والتأكيد التام على وحدة كهنوت المسيح هو تأكيد على أنه لا يوجد خلاصٌ بأحد آخر غيره؛ لاستحالة وجود وساطة أخرى.

وحتى في القداس الغريغوري، عندما يصل الكاهن إلى فكرة المصالحة بين البشر والله فإنه يوجه الكلام للإله الابن الوحيد: "الذي حل عداوة البشر". وهنا يعلن الكاهن القبطي أن المسيح وحده هو الذي حقق ذلك، وأنه هو صاحب الكهنوت، وصاحب الذبيحة. عند ذلك يطلب الكاهن نفسه: "أعطنا يا سيد وكل شعبك.." فهل هذا يعني أن القداس الغريغوري يُنكر الكهنوت؟ وهل هذا يقضي على دور الكاهن في القداس؟ وإذا قال الكاهن وهو يصلي: "يا الذي قدَّس في ذلك الزمان، الآن أيضاً قدِّس"، فهل هذا يعني أن الروح القدس لا يقدِّس، أو أن دور الكاهن القبطي هو صفر؟

وإذا قال الكاهن القبطي في القداس الكيرلسي: "أذكر يا رب هذا الكهنوت المقدس الذي لك"، فهل هذا بدوره انكار للكهنوت؟

إن انكار أن المسيح كاهنٌ واحدٌ في السماء وعلى الأرض، يعني وجود تصور لوسيط آخر بين الله والناس، ويعني أنه يوجد من يظن أنه يمكن أن يحل محل المسيح أو يقوم بعمل مماثل لعمل المسيح وهذا مستحيل.

الأهمية العقائدية والروحية للكاهن الواحد:

لقد ذكرت في مقال نُشِر في مجلة الهدى[١] أنه يوجد "كاهن واحد في السماء وعلى الأرض، وهو المسيح ويوجد جسد واحد له رأس واحد. فالكنيسة هي جسد المسيح ولها رأس واحد هو يسوع المسيح". وبهذا كنت أؤكد تعليم الآباء الذي تعبِّر عنه القداسات الأرثوذكسية، وهو أن الكاهن الواحد، إنما هو الرأس الواحد. هذا التعليم الآبائي هو الذي قاد لوثر إلى هجومه المعروف على بابوية العصر الوسيط وهو هجوم يعتمد أصلاً على تعليم أوغسطينوس .. وإذا كانت العبارة تعني الرأس الواحد لجسد واحد وهو أيضاً الرأس الكاهن الذي لم يترك كهنوته أو تنازل عنه لآخر، فما هو وجه الخطأ؟ .. الذي يتصور أنه يوجد خطأ، عليه أن يراجع تصوُّره عن الكهنوت. وفي هذا الاطار أيضاً يستخدم المؤلفون الأرثوذكس المعاصرون عبارة "كاهن واحد" مثل الأب ليف جيلله (كن كاهناً لي ص ٣).

ويقول الأب اندريه سكريما الأرثوذكسي: "ولكي نفهم دور المسيح الكاهن في الكنيسة ينبغي أولاً أن نرفع نظرنا إلى السماء حيث دخل المسيح بعد إتمام رسالته على الأرض .. وقد اصطحب الآن في صعوده وجلوسه عن يمين الآب إنسانيته الممجدة المليئة بإلوهية الله. لقد دخل إلى الله بعد أن غلب الموت .. وفي هذا كله أشركنا معه. أمَّا هذا الاشتراك فيتم في الكنيسة بواسطة الكنيسة".

لقد رأينا أعلاه أن المسيح هو كاهننا الأوحد، وأن ذبيحته على الصليب هي الذبيحة الوحيدة .. غير أن المسيح هو المذبح أيضاً بالإضافة إلى الذبيحة .. فليس هناك سوى مذبحٌ واحد في العالم هو المسيح[٢]. كل المذابح المسيحية في الدنيا هي في الحقيقة

---

(١) لوثر والآباء، مقال منشور على موقع www.coptology.com

(٢) راجع ما جاء بهذا الخصوص عند القديس كيرلس الكبير في كتابه السجود والعبادة بالروح والحق، المقالة التاسعة، حيث يقول "إن المذبح هو عمانوئيل"، وليس ذلك فقط، بل هو أيضاً الذبيحة والبخور ورئيس الكهنة.

مذبحٌ واحد، هو المذبح السمائي هو المسيح. والمذابح الأرضية تشترك بصورة سرية بسر المسيح الجاري في السماء. وليس في الحقيقة سوى كاهنٌ واحد هو المسيح، لأنه يقرِّب أمام الآب من دون انقطاع الإفخارستيا الوحيدة التي هي هو .." (مقالة في الكهنوت ص ٢٠-٢١ منشورات النور).

وهكذا يعكس الأب سكريما لغة القداسات والآباء معاً؛ لأن المذبح الناطق السمائي -حسب التسمية القبطية- هو المسيح، وحسب شرح الاريوباغي، أو الروح القدس، حسب شرح قوانين أثناسيوس الرسولي. والأساس اللاهوتي الواضح هنا ليس فقط تعليم الوسيط الواحد، وإنما تعليم الذبيحة والمذبح والكاهن الواحد، وهو التعليم الشرقي القديم المهجور والذي حل محله تعليم العصر الوسيط الوافد علينا من خلال الكتب الكاثوليكية التي صدرت في القرنين ١٨، ١٩.

وعندما يكتب الأب بولجاكوف عن وساطة المسيح وعن رئاسة الكهنوت يقول: "لقد وضع ربنا أساس الرئاسة، ومَن ينكر هذا، إنما يعاند إرادة الرب. وطبعاً لم يصبح الرسل بسبب تكريسهم مساويين، أو مثل ربنا، أو بدلاً عن المسيح، أو خلفاء للمسيح. ولا حتى القديس بطرس ولا الاثنى عشر مجتمعين. ربنا نفسه يحيا بشكل غير منظور في الكنيسة منذ صعوده وهو حي الآن في الكنيسة، الآن وكل أوان والى دهر الدهور".

"رئاسة الرسل لم تنل القوة لكي يصبحوا خلفاء المسيح، وإنما نالوا القوة لكي يعطوا عطايا ضرورية لحياة الكنيسة. وبكلمات أخرى إن رئاسة الرسل تأسست بقوة وإرادة المسيح وليس في شخص رئيس مثل البابا ولا في جماعة محفل الرسل يمكنها أن تأخذ مكان المسيح على الأرض" (الكنيسة الارثوذكسية ص ٥٠ من الترجمة الانجليزية).

النقطة الاساسية هنا كما أراها بوضوح أن الكلام عن الكهنوت يجب أن يعلن على نقطتين اساسيتين:

أولاً: إن الكهنوت هو كهنوت المسيح، فهو الكاهن والذبيحة والمذبح، وأنه لا يمكن لآخر مهما كان أن يحل محل المسيح لا في خدمة الإفخارستيا ولا في رئاسة الكنيسة.

ثانياً: إن المسيح يهب كهنوته لمن يختارهم من الأساقفة والقساوسة والشمامسة، وأن هؤلاء إنما يخدمون خدمة المسيح كل حسب مسئولياته الكنسية.

الأخطاء الشائعة عندنا عن الكهنوت:

أولاً: إن أي مساس بكهنوت المسيح هو مساس بعقيدة الفداء. ولدينا الأساقفة والقساوسة الأفاضل من يتصورون كل على حده أنه الكاهن الثاني بعد المسيح. ماذا يمكن أن يقدم هذا الكاهن الثاني، ومن أين تنبع قوته وقدرته على الشفاعة الكفارية لست أدري؟

ثانياً: عندنا من لا يقبل أن يكون الكهنوت الذي أخذه هو كهنوت المسيح، والسبب في ذلك ليس عقيدياً، بل الرغبة في التسلط والظن بأن هناك سلطان آخر غير سلطان المسيح يملكه الكاهن وهو حُرُّ التصرف فيه. وكيف نفهم أحكام القطع والفرز التي يقوم بها الكهنة والأساقفة دون محاكمة؟ من أين أتت هذه القدرة على التصرف بهذا الشكل وبهذه السهولة إلَّا مِن تصور خاص بأن هؤلاء قد صاروا هم الوسطاء بين الكنيسة والله وأنهم يملكون حرية التصرف في عضوية المؤمنين في الكنيسة حسبما يروق لهم؟

الكاهن الواحد عند ذهبي الفم وأوغسطينوس:

يقول ذهبي الفم:

"أمَّا الفرق بين المسيح وكهنة العهد القديم هو أن كهنوت المسيح بلا نهاية؛ لأن العهد الجديد بلا نهاية بعكس الناموس الموسوي. ويبرهن الرسول على صحة ذلك بدليل هو (المسيح) الكاهن. كيف؟ لأنه (يسوع المسيح) هو الكاهن الواحد والوحيد، ولا يمكن أن يكون الواحد والوحيد إلَّا في حالة واحدة وهي أنه عديم الموت. وعلة وجود كهنة كثيرون هو موتهم ولكن يوجد كاهن واحد لأنه لا يموت.." (عظة ١٣ على الرسالة على العبرانيين الترجمة الانجليزية ص ٤٢٩).

ومن حقنا أن نسأل الذين ينكرون أن المسيح هو الكاهن الواحد الذي يعمل فيهم .. هل تؤمنون حقاً بأن المسيح حَيٌّ لا يموت، وأن الموت قد أُبيد؟ إذن فكيف تصدقون أنكم أخذتم مكان الحي الذي لا يموت؟

يقول أوغسطينوس:

"مَن هو الكاهن إلَّا الكاهن الواحد الذي دخل قدس الأقداس؟ ومَن هو الكاهن إلَّا هو نفسه الذبيحة والكاهن في وقت واحد؟ أليس هو الذي لم يجد شيئاً طاهراً في الكون يقدِّمه، فقدَّم ذبيحةَ نفسهِ. إن المسحة هي على الرأس لأن المسيح واحد مع كنيسته" (شرح المزمور ١٣٢ص ٦٢٣ من الترجمة الانجليزية).

لقد أخذت هذه العبارات بالذات من أجل تأكيد صحة عبارة "الكاهن الواحد"، ومن أجل معناها الروحي والعقيدي الهام .. ويبقى سؤال هام: هل أنكر هؤلاء الآباء الكهنوت؛ لأنهم قالوا إن الكاهن واحد دون أن يذكروا الكهنوت في الكنيسة؟ وإذا

اكتفى هؤلاء الآباء بعبارة "الكاهن الواحد"، فهل هؤلاء هراطقة؟ .. أريد أن أعرف هل ما يحدث في السماء هو شيء منفصل تماماً عما يحدث على الأرض؟ وبالتالي هل يشغل الأسقف والقس مكان المسيح في الكنيسة عوضاً عن السيد المسيح؟

ماذا يريد الذين ينكرون كهنوت المسيح أن يفعلوا بالمسيح؟ هل لديهم وظيفة كهنوتية أخرى له .. وإذا لم يكن المسيح هو العامل فيهم فمن هو العامل فيهم اذاً؟؟!!

المسيح وذبيحة الافخارستيا:

يقول الشهيد كبريانوس في رسالته إلى *Certain* :

> "إذا كان يسوع المسيح ربنا وإلهنا وهو نفسه رئيس كهنة الله الآب، وأنه قدَّم ذاته ذبيحة للآب، وإذا كان قد أمر أن تقدم هذه الذبيحة كذكرى له. فإنه بكل يقين عندما يتشبه الكاهن به ويقدم ما قدمه المسيح ويقوم بما قام به المسيح فهو حقاً يخدم في مكان المسيح".

فالمسيح هو الكاهن الذي تستمد منه الكنيسة كهنوت الأساقفة والقساوسة والشمامسة. وعندما يخدم الأسقف أو القس أو الشماس،فهو يقوم بعمل المسيح نفسه، أو هو في مكان المسيح؛ لأن المسيح هو الذي رتب ذلك. ويشرح هذه الحقيقة الثابتة في كل كتب الآباء منذ رسائل أغناطيوس الأنطاكي، القس زكريا ابن سباع في كتاب "الجوهرة النفيسة .." ويقول في الباب ٢٩:

> "إن المسيح هو الكاهن الذي خدم أغنسطساً لأنه قرأ السفر في المجمع. وخدم إيبودياكون عندما صنع محصرة من حبل وطرد الباعة من الهيكل .. وخدم كاهناً عندما صنع العشاء الرباني .. وخدم أسقفاً لأنه كان يجول يفتقد القرى، وخدم في رتبة البطريرك لأنه أكملها قبل صعوده، فإنه قبل صعوده أخذ تلاميذه ونفخ في وجوههم وقال: "اقبلوا الروح القدس ..".

وما أبعد الفرق بين القس زكريا ابن سباع وبعض الأساقفة الأفاضل الذين ينسون ويخرجون من الهيكل ويبخرون للشعب؛ لأنهم لا يعتقدون بأنهم يمثلون المسيح والقس يمثل الرسول .. هذا التسليم الطقسي القديم الثابت في كل كتب الطقسية صار منسياً عندنا لأن بعض الذين يُرسمون لدرجة الأسقفية لا يقرأون هذه الكتب، ولأن الذين يسلمونهم الذبيحة ليسوا من الذين تسلَّموا الطقوس الكنسية التي تؤكد أن الأسقف يمثل دور المسيح ويقوم بخدمته الإلهية، ولذلك يرسل القس لكي يخدم ويبخر للشعب.

يقول القديس امبروسيوس في رسالته إلى الأسقف *Constantius*:

> "إننا نرى أمير الكهنة آتٍ إلينا. نراه ونسمعه يقدِّم لنا جسده. ونحن نتشبه به على قدر ما نستطيع؛ لأننا كهنةٌ، ونقدِّم الذبيحة عن الشعب، وحتى إذا كان لنا استحقاق ضئيل، إلَّا أننا ننال كرامة تقديم الذبيحة؛ لأنه وإن كان المسيح لا يُرى كمَن يقدم الذبيحة، إلَّا أنه هو نفسه الذي يُقدَّم الآن في الذبيحة التي تقدِّمُها الكنيسة على الأرض .. وحقاً عندما نقدِّمه صار بالتقديم منظوراً فينا (نحن الكهنة)؛ لأننا بكلماته ذاتها نقدم الذبيحة الإلهية".

مَن الذي يهاجم الكهنوت؟

يقول مار إسحق السرياني: "الأهواء تقود إلى الشك، أمَّا الحكمة فهي طريق اليقين". وهكذا تستطيع الأهواء أن تصوِّر الكثير، وأن تخلق عبارات كلام يشبه إلى حد كبير كلام الحكمة. ولكن كما يقول مار إسحق أيضاً: "البرهان ليس بكثرة الكلام، بل بقوة الإفراز". ولذلك ونحن نتبع الآباء ونسلك في خطواتهم ونقول ما قالوه، صار واجبنا أن نفتح ملف الحوار مع الأخوة الإنجيليين، وأن ندخل موضوع الأسرار بعيداً عن لاهوت العصر الوسيط الذي تميز بما يلي:

أولاً: إنه منذ توما الأكويني قد وضع على أساس فلسفة أرسطو.

ثانياً: إنه تجاهل تماماً كتابات الآباء الشرقيين، واكتفى بالقديس اوغسطينوس وغيره من علماء اللاهوت الغربيين الذين ذاعت شهرتهم في العصر الوسيط مثل البرت الكبير وغيره.

فكيف يمكن لنا أن نفتح الحوار مع الإنجيليين –وهو مسئولية مسكونية ومسئولية محلية خاصة بنا؛ لأن الكنيسة الإنجيلية تحيا معنا في مصر– دون أن نعود إلى الأصول ودون أن نأخذ بما جاء به الحوار المسكوني نفسه خارج مصر، وهو الأبحاث اللاهوتية التي قدمتها الكنائس في جلسات رسمية على مدى ٣٠ سنة، وهكذا فتَحتُ الحوار في مجلة الهدى[١] وقدَّمتُ عدة موضوعات تحت اسم المعضلات. وكانت المعضلة الثانية كما حددها المقال "إن فكرة الاستحالة الجوهرية كما رآها لوثر هي مرتبطة بشكل دقيق بفكرة الكهنوت الروماني". إذن نحن نبحث فيما حدث في القرن السادس عشر وهو لاهوت العصر الوسيط، وهكذا جاءت نقاط المقال في هذا التسلسل الواضح الذي ننقله عن المقال كما هو دون حذف أو اضافة:

"وهنا أُنبِّه إلى خطأ نقع فيه أحياناً، لم يكن موجوداً عند آباء الكنيسة في القرون الأولى: تعليم عن كنيستين، الكنيسة المنظورة والكنيسة غير المنظورة".

وما هو وجه الخطأ في العودة إلى تعليم الآباء والتذكير بأن لاهوت العصر الوسيط قَسَمَ الكنيسة إلى كنيسة يرأسها البابا، وأخرى يرأسها المسيح، إنما هو في الواقع أحد الأفكار الأساسية التي ذاعت في العصر الوسيط والتي تهدم الكهنوت.

هذا التعليم وُلِدَ في الغرب. وأدخل فكرة هرمية كهنوتية. كما نراها في الغرب الكاثوليكي.

---

(١) لوثر والآباء، مقال منشور على موقع www.coptology.com

فالمسيح هو رأس الكنيسة غير المنظورة – الكنيسة المنتصرة.

البابا هو رأس الكنيسة المنظورة – الكنيسة المجاهدة.

لكن التعليم المسيحي الذي صيغ في قانون الايمان النيقاوي هو أننا نؤمن بكنيسة واحدة.

فمن الذي يهاجم الكهنوت هنا؟ الذي يحتفظ بتعليم العصر الوسيط لكي يقضي على كهنوت المسيح، وهو أن كهنوت المسيح الدعامة الوحيدة لسر الكهنوت في الكنيسة، أم الذي يؤكد أن الخطأ الشائع في كتب اللاهوت هو تطور فكرة الهرم الكهنوتي التي لا وجود لها في الشرق؛ لأن الكنيسة جسد واحد وليست هرماً.

وبالتالي ما يحدث في الكنيسة التي على الأرض –الكنيسة المجاهدة– لا شأن له بما يحدث في الكنيسة المنتصرة.

إن البابا الروماني هو رأس الكنيسة المنظورة وأنه يملك المفاتيح.

ولذلك مع التعليم بالكنيستين ومع نمو السلطان الكهنوتي، كانت فكرة قدرة الكاهن وسلطانه على أن يحول الخبز والخمر هي فكرة ضاربة بجذورها في اللاهوت الغربي.

وصارت ضاربة بجذورها في اللاهوت الشرقي بعد القرن الثامن عشر.

وصار من المستحيل التصدي لهذه الفكرة إلَّا بالعودة إلى التعليم القديم الذي شاع في الكنيسة الأولى؛ لأنه يوجد كاهن واحد في السماء وعلى الأرض هو المسيح. ويوجد جسد واحد له رأس واحد. فالكنيسة هي جسد المسيح ولها رأس واحد هو يسوع المسيح.

هل يوجد أوضح من كلام المقال الذي يعرض ما حدث في الغرب وكيف دخل الفكر الغربي عندنا؟؟ هل هذا دفاعٌ عن الايمان السليم وعن العقيدة السليمة في الكهنوت، أم هجومٌ على الكهنوت خاصة، إذا كانت الكلمات تؤكد تطور الفكر الغربي وانقسام الكنيسة إلى كنيستين، المجاهدة ويرأسها البابا الروماني وحسب الاعتقاد الشائع عندنا الذي يرأس الكنيسة المجاهدة عندنا هو البابا السكندري، أمَّا المنتصرة فيرأسها المسيح؟

فهل هذا هجوم على الكهنوت، أم محاولة لكشف تعليم العصر الوسيط؟ لو كان لدينا فعلاً كنيستين واحدة في الأرض والأخرى في السماء، وهي الفكرة التي رفضها الأستاذ حبيب جرجس .. فلماذا يقدَّم البخور –في الطقس القبطي بشكل خاص– للمسيح والعذراء والملائكة والرسل والآباء .. ألا يهدم التعليم بكنيستين الطقس القبطي نفسه لأن الكنيسة التي في السماء لا شأن لها بما يحدث على الأرض.

ولو كان لدينا سلطان كهنوتي يحول بسلطانه الخاص –كما هو واضح من المقال – الخبز والخمر إلى جسد الرب ودمه، فمن أين جاء هذا السلطان، وما هو مصدره طالما أننا لا نقول أن السلطان هو سلطان المسيح؟

وتحضرني بهذه المناسبة قصة شيقة أقدمها هنا لمجرد كسر حدة التسلسل الفكري، وهي أنني كنت في كنيسة أخدم مع أحد الأساقفة شماساً وكان مع الأسقف قسٌ كما هي العادة فحمل الأسقف الصعيدة عند قوله: "مجداً وإكراماً .. الخ" وقام بالدورة حول المذبح دون أن يعطي القس الصعيدة لكي يدور بها حول المذبح .. خطأٌ طقسي ذو دلالة عقائدية !! وعندما نبَّهت سيدنا الاسقف إلى أنه في حالة وجود قس، فإنه هو الذي يقوم بالدورة حول المذبح؛ لأن القاعدة الطقسية القديمة هي أن الاسقف يمثل المسيح والقس يمثل الرسل وبالتالي يسلم الأسقف الصعيدة للقس كما سلَّم المسيح الصعيدة للرسل .. هذا يؤكد ما سبق وقلته من قبل عن عدم وضوح عقيدتنا في الكهنوت.

إن قلبي ممتلئ بالأحزان؛ لأن تعليم الآباء يكاد يكون مجهولاً. وعند الآباء في الشرق لا يوجد موضوع مستقل خاص اسمه السلطان الكهنوتي. إذا ورد هذا الموضوع فهو يأتي تحت موضوع آخر هو علاقة المسيح بالكنيسة وعمل الروح القدس الذي يكمل اسرار الكنيسة. وبينما بحث الغرب في العصر الوسيط عن سلطان الكاهن بعيداً عن عقيدة الفداء وبمعزل عن الأساس اللاهوتي الواضح عند الآباء، فإن الشرق لم يقع في هذا الخطأ على الأقل طقسياً، وقبل العصر الحديث أو القرن الثامن عشر بالتحديد.

كان الكاهن القبطي أسقفاً أم قساً، بعد استدعاء الروح القدس، يقول: "السلام لجميعكم" بدون رشم؛ لأن المسيح الحاضر وهو الكاهن الحقيقي الواحد هو الذي يرشم الشعب .. فالكاهن القبطي ظل طقسياً على الأقل أكثر وعياً من زميله الغربي بأن الحاضر والفاعل كل شيء هو المسيح، فمن الذي هاجم الكهنوت؟ أالذي يطالب بالعودة إلى الشرق، أم الذي يريد أن يتمسك بلاهوت العصر الوسيط لكي ينعم بسلطان مستقل خاص يعطيه الفرصة لكي يعمل أعمالاً غير أعمال المسيح.

أسأل محبتكم على أي أساس عقيدي ترفض الكنيسة القبطية رئاسة البابا الروماني؟ وهل لدينا في الكنيسة القبطية رئاسة بابوية مثل رئاسة بابا روما مع فرق واحد وهو الاختلاف الجغرافي؟؟ لقد أجاب الأستاذ حبيب جرجس على هذا السؤال بكل وضوح معبِّراً عن التسليم الآبائي، وهو أن المسيح هو رأس الكنيسة الوحيد .. فهل كان الأستاذ حبيب جرجس ينكر الكهنوت هو الآخر لأنه قال إن رأس الكنيسة هو المسيح؟

نحن نتبع الآباء، ولذلك أريد أن أرى مقالاً أو بحثاً أو حتى صفحة واحدة تعلن فيها الكنيسة القبطية من واقع التقليد الارثوذكسي أن رأس الكنيسة هو البابا وليس المسيح.. عند ذلك فقط يكون ما كتبت إمَّا هو التعليم السليم لأن هذا التصريح يتجاهل التقليد، وإمَّا أنه تعليم خاطئ برمته؛ لأن التصريح الذي أطلبه قد أثبت ذلك من التقليد، ولا يبقى أمامي إلَّا الاعتراف بالخطأ علانيةً وبكل تواضع وانسحاق.

الحقيقة الواضحة من الممارسة نفسها أن التصور الغربي تسلل إلينا قليلاً قليلاً. وفي غيبة المصادر الآبائية عن سر الكهنوت، يصبح الكلام عن المسيح الكاهن الواحد الذي يعطي كهنوته للأسقف والقس والشماس، هو موضوع مرفوض؛ لأنه يقيِّد عمل الكهنة بأعمال المسيح كما ينبغي .. لكن رفض التصور الغربي والعودة إلى الآباء معناه أيضاً أن الذين يقبلون تعليم العصر الوسيط عليهم مراجعة تعليم الكفارة أو الفداء لأن هذا المبدأ غير ثابت ولا ظاهر في العصر الوسيط وهو الذي قاد إلى الانقسام الكبير الذي يعرف باسم حركة الإصلاح.

القسم الخامس

الإفخارستيا في الغرب والشرق،

والتعليم عن الاستحالة عند الآباء

العودة إلى التراث الشرقي هي مسألة بالغة الأهمية، ولذلك أخذت عنوان هذا الجزء من مقال مجلة الهدى المنشور، وعلى صفحة ١٧ حيث أقول: "أحب أن أذكركم أيضاً بأنه يوجد فرق أساسي بين الاستحالة الجوهرية وتعليم الاستحالة عند الآباء". إذن يوجد تعليم بالاستحالة عند الآباء حدَّد المقال أنه يختلف عن التعليم الغربي على هذا النحو:

١– "في اللغة العربية المتأخرة التي استُعمِلت في مصر وفي الشرق العربي على وجه الإطلاق، نجد أن تعبير "الاستحالة الجوهرية" لا يظهر في المؤلفات اللاهوتية قبل القرن التاسع عشر وتحت تأثير المبشرين الكاثوليك. إذن الاشارة واضحة إلى لفظ أو اصطلاح. وتاريخ استخدام اللفظ معروف، وعدم وجود هذا اللفظ في الشرق هو أمر ظاهر أيضاً. إن من يقارن بين كتاب عريان مفتاح وكتاب حبيب جرجس يجد أن حتى تعبير الاستحالة غير وارد في كتاب عريان مفتاح، وأن أول من أدخل اللفظ هو الأستاذ حبيب جرجس الذي كان يدرك أنه أمام لفظ حديث، فاستعمل كثيراً تعبير "الاستحالة السرية" ونادراً ما يظهر تعبير الاستحالة الجوهرية عنده.

التعليم عن الاستحالة في الشرق:

يقول المقال بكل وضوح: "أمَّا الاستحالة في الشرق، فهي موضوع غير محدد لفظياً وفلسفياً". عجبي ماذا أصنع أكثر من ذلك؟ ثم استطردت بعد ذلك مباشرة: "ولذلك فالفرق الأساسي ليس في اللغة فقط، بل في اللاهوت أيضاً". وهنا ماذا يمكن أن يُقال أكثر من ذلك؟

وبعد أن عرضنا لنقطة اعتراضية عن الجدل في الغرب، وعن الأجساد الثلاثة، وعن عدم استطاعة الغرب أن يصل إلى تصور سليم بسبب تمسكه بمبادئ فلسفة أرسطو؟ قلنا إن الإجابة على هذا التصور تأتي من خلال الفهم السري الذي يدركه الإيمان. ثم عدنا إلى الشرق وقلنا إن المسيح "واحد لا ينقسم: هو في العشاء الرباني وفي الكنيسة وعن يمين الآب هو بذاته المسيح الواحد".

والمشكلة كما يعرفها طلاب اللاهوت في أي معهد لاهوتي أرثوذكسي أو غيره، هي أن الغرب قسَّم المسيح إلى ثلاثة أجساد، وشاع هذا التقسيم في العصر الوسيط، ودخل حتى اللاهوت البروتستانتي المتطرف الذي يعبِّر عنه سعيد مرقص إبراهيم بكل دقة، ويشرح الأجساد الثلاثة على أنها – جسد المسيح الحرفي الذي حل فيه الكلمة الأزلي – جسده السري في العهد الجديد، أي الكنيسة – جسده الرمزي التذكاري وهو خبز عشاء الرب .. (جسد الرب ودمه الكتاب الثاني ص ٨٢).

ولعل الكثيرون يتذكرون أن بعض الكتب الحديثة ذكرت هذا في العشر سنوات الأخيرة، والموضوع لا يحتاج إلى تعليق؛ لأن المصطلحات المستخدمة ليست واردة بالمرة في العهد الجديد، ولا في القداسات، ولا في كتابات الآباء. هذه المشكلة ظهرت في الغرب منذ القرن العاشر كما أشرنا في مقال مجلة الهدى .. لكن النقاط اللاهوتية الثابتة في التقليد الشرقي هي:

١- المسيح واحد غير منقسم إلى لاهوت وناسوت.

٢- المسيح واحد مع الكنيسة.

٣- المسيح واحد في الإفخارستيا.

وهنا يظهر أن المسيح الواحد هو بذاته غير المنقسم إلى لاهوت وناسوت لئلا يهدم التقسيم سر الخلاص كله. والمسيح واحد مع الكنيسة؛ لأن الحياة الجديدة التي تصنع وتكون الكنيسة، هي حياة المسيح. هذه الحياة تُوهب في الأسرار وفي الإفخارستيا بشكل خاص. وهذا ما أكَّده المقال، فهل ستعود الكنيسة القبطية إلى لاهوت العصر الوسيط، وأن تعلن رسمياً ومن التقليد أن المسيح عن يمين الآب ليس هو رأس الجسد الواحد، وليس هو الكائن على المذبح في القداس؟

المسيح هو الخبز السمائي:

يقول مقال مجلة الهدى: "كان الشرق مشغولاً بموضوع آخر في التفسير السري للعشاء الرباني، وهو كيف جعل المسيح نفسه خبزاً سمائياً. فالمسيح يتحول إلى خبز أكثر مما يتحول الخبز إلى المسيح". وتحول المسيح إلى خبز هو التعبير الواضح الذي استخدمه الرب نفسه في يوحنا: "أنا هو الخبز الذي نزل من السماء" (٦: ٤١) .. "أنا هو خبز الحياة" (٦: ٣٥). لقد جعل المسيح ذاته خبزاً لكي يعطي الكنيسة الفرصة لأن تقدِّم الكنيسة صعيدة الشكر. وهكذا قلنا في المقال: "لو أن الشرق ظل بمفرده ودون اتصال بالغرب لربما كان في مقدرته أن يقدم إجابةً أخرى غير الإجابات التي سمعناها تتردد في الغرب بين قادة حركة الإصلاح وبين الكنيسة الكاثوليكية" (ص ١٧).

لقد طرحتُ معضلة تجنب التيار الفلسفي، وضرورة العودة إلى الشرق حتى يمكن أن نتجنب التيار العقلاني الذي وقع فيه الغرب، والذي أدَّى إلى نظرية الأجساد الثلاثة التي أشرنا إليها، دون أن يسأل الغرب: كيف صرح المسيح بأنه هو الخبز النازل من

السماء؛ لأن النزول من السماء يعني حقيقة الاتصال بالأرض وحقيقة تقديم ذاته بعد صعوده إلى السماء، وهي الملاحظة التي نراها عند كل الآباء الذين شرحوا إنجيل يوحنا مثل ذهبي الفم – كيرلس الكبير – اوغسطينوس؟

الخبز السمائي، أم العَرَضْ والجوهر؟

إذا كان المسيح قد قدَّم ذاته وجعلها خبزاً يؤكل، فحسب فلسفة أرسطو التي قام عليها تعبير الاستحالة الجوهرية .. مَن يصبح الجوهر ومَن يبقى العَرَضْ؟

إذا كان المسيح قد قدم ذاته خبزاً سمائياً .. فمَن هو الجوهر: المسيح، أم الخبز السمائي؟ ومَن هو العَرَض المسيح، أم الخبز السمائي؟ .. الجواب الشرقي: لا هذا، ولا ذاك، فليس ثمة جوهر وعَرَض؛ لأن الخبز السمائي هو مصدر حياة سرية آتية من الله، وبالتالي لا يوجد جوهر وعَرَض في أي عمل من أعمال الله.

لقد سبقتنا الكنائس الارثوذكسية الأخرى، وسجَّلت في كتبها التي سوف نأخذ عنها بعض الفقرات، وأكدت هذه الكنائس تمسكها بالتعليم السري الذي يُبعد العقل تماماً عن تيارات الفلسفة وتصورات المنطق ويضعه في تيار الحياة السرية.

تعارض تعليم الاستحالة الجوهرية مع الليتورجية الشرقية:

تعبير "الاستحالة الجوهرية" هو تعليم فلسفي لا نراه في القداسات الشرقية كلها .. كان التعبير معروفاً في كتب الفلسفة، ومع ذلك لم يستخدمه الآباء. ومَن يدعي بأن الآباء استخدموا تعبير الاستحالة الجوهرية عليه أن يقول لنا أين؟!

أنا أطالب بالعودة إلى تراث الشرق وإلى تعبيرات الآباء، وهذا ما سوف تؤكده السطور التالية.

ما هو الجوهر عند أرسطو؟

حسب فلسفة أرسطو، الجوهر هو ما يكون الشيء، وهو أمر ثابت لا يتغير، بل أنه محتوى عقلي يصل إليه العقل بالتأمل وحسب قواعد القياس الفلسفي. وهكذا حسب أرسطو: رائحة الخبز وختم القربانة هو من الأعراض لا الجوهر. أمَّا جوهر الخبز فهو ما يجعل الخبز خبزاً، أي المدلول الثابت الباقي. وإذا كان تعليم الاستحالة الجوهرية يؤكد تحول جوهر الخبز إلى جسد المسيح وبقاء أعراض الخبز كما هي، فإننا نلاحظ على الفور أن هذا التعليم لا يمكن مصالحته مع التيار الروحي والطقس الشرقي في الليتورجية للأسباب الآتية:

أولاً: حسب فلسفة أرسطو تصبح جميع الرشومات في القداس قبل وبعد التقديس بما فيها رشم الجسد بالدم والدم بالجسد .. رشومات تتم بواسطة الأعراض وعلى الأعراض، أي على ما هو منظور ومحسوس .. وبالتالي تفقد قيمتها السرائرية. بل تصبح كل الطقوس الخاصة بالرشم وطقس القسمة وكل ما يتم في القداس واقع في مجال الأعراض، لأن الجوهر لا يمكن رشمه لأنه محتوى عقلي .. طبعاً هذه المشاكل لا تظهر في القداس الغربي؛ لأن القداس الغربي لا يعرف هذا التيار الروحي بالمرة، بل هو فقير جداً.

ثانياً: الذكرى بمعناها الأرثوذكسي الدقيق تقوم على الصلاة والكلمة والقسمة، وهذا ما يؤكد لنا فعلاً أن هذا الدم المسفوك لأجلنا، وأن الجسد الذي صلب وقام هو ما نأخذه في الافخارستيا.

ولكن حسب فلسفة أرسطو، الجوهر غير قابل للكسر، لا جوهر الخبز قبل الاستحالة، ولا جوهر المسيح بعد الاستحالة .. وبالتالي القسمة بمعناها اللاهوتي يجب أن تكون شيئاً عَرَضياً يتم على أعراض الخبز فقط، وهذه أيضاً مشكلة، وهي غير موجودة في الغرب؛ لأن الكاهن يضع البرشام بعدد المتناولين، وليس عنده طقس خاص بالقسمة بعكس الشرق. وهكذا تفقد القسمة والذكرى معناها اللاهوتي والطقسي وتصبح بلا أهمية لأنها خاصة بالعرض.

ثالثاً: وإذا ما جئنا إلى لاهوت الأسرار، فإن القاعدة الثابتة عند الآباء هي أن كل متناول، إنما يأخذ المسيح كله وليس جزءاً من المسيح، وهكذا تظهر على الفور ثلاثة قضايا خطيرة جداً:

١– القسمة عمل عَرَضي ولا علاقة له بالجوهر، وبالتالي وفي إطار الفلسفة لا يمكن أن نقول إننا نوزِّع جسد المسيح على المتناولين؛ لأن الجوهر لا يمكن تقسيمه وتوزيعه لأنه غير قابل للتوزيع.

٢– لا يمكن أن يكون –حسب فلسفة أرسطو– لقول الرب: "جسدي أكل حق ودمي شراب حق" أي مدلول بالمرة؛ لأن الأكل يقع على الأعراض وحدها دون الجوهر، وفلسفياً لا يأكل الإنسان جسد المسيح ويشرب دمه. وهنا يجب حذف تعبير الأكل والشرب.

٣– نؤمن بأننا نتناول جسد المسيح ودمه لشفاء الأمراض الروحية والجسدية وغفران الخطايا .. الخ وبشكل خاص للقيامة من الموت في اليوم الأخير .. وحسب فلسفة أرسطو، المرض والموت، بل وحتى القيامة هي أمور خاصة بالأعراض؛ لأن الجوهر غير قابل للمرض أو الموت أو القيامة. وكانت الفلسفة اليونانية في زمن سقراط هي التي اعتبرت أن القيامة قانون من قوانين الطبيعة وليست عملاً من أعمال النعمة الإلهية .. وهكذا تحول عمل السر الأساسي لشفاء الأعراض فقط دون أن يمس جوهر الحياة.

لديَّ المزيد من الإعتراضات التي سوف تقدم في حينها.

أهمية التراث الشرقي الأرثوذكسي في الحركة المسكونية

في عبارة مشهورة لبسكال: "الحقيقة التي لا يمكن بحثها ليست حقيقة بالمرة". وهكذا، ما الذي نخاف من بحثه عندنا؟ لأن الحق معروفٌ وله أساسات في التقليد. وهذا الحق في تقدير كل الأطراف التي دخلت الحوار اللاهوتي المسكوني المعاصر هو العودة إلى

الكنيسة الجامعة قبل الانقسام في القرن الخامس. هذا هو أساس الحوار اللاهوتي بيننا وبين الأرثوذكس الخلقيدونيين وبيننا وبين الكاثوليك وبين الكاثوليك والكنائس اللوثرية وبين الكنائس اللوثرية والكنائس الإنجيلية التقليدية، بل كان هو لُب الدعوة المشهورة للكاردينال *Newman* في حواره مع الكنيسة الأنجليكانية.

هذه الحقيقة التاريخية كانت الخلفية التي على أساسها كتبتُ مقالة مجلة الهدى. وهذا ما سوف نبرهن عليه من المقالة نفسها.فقد تعرضنا لدور حركة الإصلاح في الفكر الإنساني وذكرنا دعوة لوثر "إلى المصادر الأولى للتعليم وهي الكتاب المقدس والتقليد الكنسي الذي قلنا عنه: "ونحن نعلم أن لوثر لم يكن يرغب في أن يبتعد كثيراً عن التقليد". وبعد ذلك ذكرنا المشكلة الأولى، وهي مزج اللاهوت بالفلسفة وقدَّمنا مثالين على ذلك: أوريجينوس من الشرق وتوما الأكويني من الغرب. وحددنا أسماء الآباء الذين لم يتأثروا بالمنهج الفلسفي في الشرق وذكرناهم بالاسم: أثناسيوس وكيرلس السكندري وايريناوس – ذهبي الفم – باسيليوس – النزينزي. وذكرت بعد ذلك تاريخ الجدل اللاهوتي في الغرب دون أن نذكر التفاصيل، وقدَّمنا لمحة عامة عن علاقة هذا الجدل بفلسفة أرسطو "التي أمدت اللاهوتيين والمفكرين بالكثير من الحقائق والأخطاء".

ودخلنا مباشرةً وفي لمحة سريعة لروحانية العصر الوسيط وكيف كان الاعتقاد بأن المسيح يُذبَحُ في كل قداس وكانت الأجراس تدق ساعة توزيع الأسرار ليعرف الشعب أن جنب المسيح قد طعن بالحربة وأن دمه يملأ الكأس الآن على المذبح، وقلنا إن هذه الروحانية مع الاعتقادات السائدة لم تكن معروفة في الشرق ولم يسأل الشرق نفس الأسئلة التي سألها الغرب .. (ص ١٦).

وقدَّمنا المثال المطلوب دراسته، وهو قضية الاستحالة الجوهرية في الغرب كنموذج لما صار إليه الفكر اللاهوتي المتأثر بأرسطو. وتعرضنا إلى محاولات العصر الحديث للعودة إلى المفهوم العبراني للجسد والدم غير المتأثر بالفلسفة اليونانية، وأن أكل الجسد وشرب الدم هو اشتراكٌ في حياة المسيح؛ لأن كلمة جسد ودم تعني الحياة الحقيقة.

وطرحنا بعد ذلك نقطة الالتقاء بين لوثر والآباء، ونقطة الالتقاء هي رفض اللاهوت المدرسي *Schoolastic* المتأثر بالفلسفة، فهي النقطة التي تدور حولها الآن كل الدراسات المسكونية عند الأرثوذكس وغيرهم. وبعد ذلك أكدنا أننا أمام معضلات عدة وحددناها: اللغة اللاهوتية المعقدة الآتية من الفلسفة – فكرة الاستحالة الجوهرية كما رآها لوثر – عمل الروح القدس في الأسرار وعلاقة هذا بتعريف السر الكنسي الذي يخلو من الإشارة لعمل الروح القدس (علامة منظورة لها نعمة غير منظورة)، وتكلمنا عن تحديد عدد أسرار الكنيسة السبعة في مجمع ترنت، وقلنا بالحرف الواحد "كانت هناك أسرارٌ، ولكن لم يكن عددها محدداً بالمرة" (ص ١٧ .. الخ).

فما هو وجه الخطأ في عرض مقال يدعو إلى حوار؟ أعتقد أن الخطأ الوحيد هو أنني افترضت أن الذين سيقرأون المقال (وهو أصلاً محاضرة ألقيت في كلية اللاهوت الإنجيلية) كانوا على معرفة بالأمور والمسائل التي تطورت في الـ ٢٠ سنة الأخيرة.

لقد أكَّدت الضجة والانفعالات التي صاحبت مقال مجلة الهدى أن الفكر الديني المصري المسيحي لا يختلف في جوهره عن الفكر الديني الإسلامي. وقد شهدت مصر في السنوات العشر الماضية دعوة متكررة للقضاء على أبرز المثقفين في حياة مصر مثل زكي نجيب محمود ود. يوسف أدريس وغيرهم .. وأنا لا أحسب نفسي واحداً من هؤلاء، كما أنني لا أتصور أنني سوف أشغل مكانة أيٍّ من هؤلاء .. ولكن الظاهرة الجديرة بالاعتبار هي أن مقاومة هؤلاء تمت أولاً باسم الدين الإسلامي. وباسم الاسلام طلب عدد كبير قتل عبد الرحمن الشرقاوي. ويبقى لديَّ سؤال واحد محدد أوجهه إلى قداستكم:

هل يوجد فرق بين هذه الظاهرة وظاهرة الإعلان عن فلان وفلان بأنهم هراطقة أو خونة أو .. الخ من الأوصاف التي يعف اللسان والقلم عن ذكرها؟

أليس السلاح الديني هو هو نفسه؟ أليست مقاومة كل من يختلف مع أخيه فكرياً تأخذ الطابع الديني أو اللاهوتي؟

ولست أظن بأنني أظلم أحداً إذا سألت لماذا لم تتم محاكمة من أُعلنت هرطقاتهم؟ هل الطريق هو الطريق الرسولي الارثوذكسي في مواجهة الخطأ أو الهرطقة من الكتاب المقدس والتقليد، أم مواجهة الخطأ والهرطقة بحملات التشهير؟ .. ما الفرق بين الكنيسة القبطية الارثوذكسية والجماعات الاسلامية؟

إذا لجأت الكنيسة إلى حملات التشهير مع أن الدفاع عن الإيمان يحتاج إلى ذكر التعليم الصحيح، فهل حدث ذلك .. هل اجتمع مجمع مسكوني أو مكاني لكي يشهِّر بأحدٍ من عتاة الهراطقة، أم اجتمع المجمع للفحص والدراسة والوصول إلى تحديد عقيدي واضح؟ .. هذه الأسئلة أتركها لقداستكم لأنكم لا بُد وأنكم تعرفون الإجابة عنها.

القسم السادس

"الاستحالة الجوهرية"

في كتابات علماء أرثوذكس معاصرون

يقول الاسقف جراسيموس مسرة في كتاب الأنوار في الأسرار "وأعلم أن لفظ الاستحالة والانتقال هي الألفاظ القديمة في الكنيسة، أمَّا لفظ "استحالة الجوهر" فاستعماله محدث يُقصد به زيادة الإيضاح" (ص ١٥٢).

ويقول الأب جون مانيدروف في كتابه الكنيسة الارثوذكسية: "أكد التعليم الأرثوذكسي دائماً حقيقة التغيير السرائري ***Metabole*** [١] في الإفخارستيا حيث يتغير الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح. ومع ذلك لا القداس ولا الآباء ولا أيٌّ من الآباء ولا في أي نص أرثوذكسي أصيل قبل القرن السادس عشر استُخدِم تعبير الاستحالة الجوهرية ***transubstantiation*** لوصف هذا السر". (كتاب الكنيسة الأرثوذكسية بالإنجليزية ص ٧٢).

ويؤكد الأب بولجاكوف نفس الحقيقة في كتابه الذي يحمل نفس الاسم (الترجمة الانجليزية ص ٤٠). ونفس الشهادة نراها عند اللاهوتي بول افدوكيموف في كتابه "الأرثوذكسية" النص الفرنسي (ص ٢٤٤ – ٢٤٦).

---

(١) تعني الإستحالة أو التغير ووردت في كل الصلوات اليونانية الشرقية في الخولاجيات وعند أغلب الآباء.

ماذا فعلت السلطات الكنسية في كنائس هؤلاء العلماء الأفاضل الذين لا زال بعضهم أحياء؟ هل مُنعوا من التدريس والوعظ، أم ظلوا في كنائسهم يمارسون دراساتهم وعملهم.

لقد أثبت الأسقف الارثوذكسي كالستوس وير في كتابه الكنيسة الارثوذكسية الذي نُشر في بيروت باللغة العربية هذه الحقيقة أيضاً وعن الترجمة العربية ننقل هذا النص:

"حضور المسيح في الإفخارستيا":

"كلمات استدعاء الروح القدس تدل دلالة واضحة على أن الكنيسة الأرثوذكسية تؤمن بأن الخبز والخمر يستحيلان حقيقة بعد التقديس إلى جسد المسيح ودمه، وأنهما ليسا رمزين لهذا الجسد وهذا الدم، بل هما الجسد والدم عينهما. ولكن مع تأكيدها على حقيقة الاستحالة، لم تحاول الأرثوذكسية قط تفسير الطريقة التي تجري بها والعبارات المستخدمة في قانون الشكر (القداس) للدلالة على هذا الأمر، أي "ناقلاً إياهما لا تعطي أي توضيح. وصحيح أن بعض الكتاب الارثوذكسيين في القرن السابع عشر، وحتى بعض المجامع مثل مجمع أورشليم في السنة ١٦٧٢ استخدموا عبارة استحالة الجوهر *Transubstantiatio* اللاتينية، كما استعملوا التمايز الذي تحدثت عنه المدرسة السكولستيكية بين الجوهر والأعراض. لكن آباء مجمع أورشليم أضافوا في الوقت نفسه قولهم بأن استخدام مثل هذه التعابير لا يعني تفسيراً للطريقة التي تتم بها الاستحالة، لأن ذلك سِرٌّ ينبغي أن يظل دائماً غير مفهوم، لكن على الرغم من هذا، أحس الكثيرون من الأرثوذكسيين بأن المجمع قد ذهب بعيداً في التوافق مع التعبير اللاتيني والسكولستيكي (المدرسي أو العصر الوسيط)" (ص ١١٤ – ١١٥).

وبعد ذلك أضاف الأسقف كالستيوس ملاحظة هامة قال فيها: "تميِّز فلسفة العصر الوسيط بين الجوهر والذي يكون الشيء ويجعله ما هو عليه، والأعراض أو الصفات التي تخص الجوهر أي كل ما تدركه الحواس: الحجم، الوزن، الشكل، اللون، الذوق، الرائحة، .. والجوهر شيء موجود بذاته، أمَّا الأعراض فموجودة في داخل شيء

غيرها ليس إلَّا. إذا ما طبقنا هذا التمايز على الإفخارستيا، فإننا نصل إلى عقيدة استحالة الجوهر، وفق هذه العقيدة، عند تقديس القرابين في القداس الإلهي يحدث تغيير في الجوهر في حين تظل الأعراض هي هي. فجوهر الخبز والخمر يتغيران إلى جوهري جسد المسيح ودمه، لكن أعراض الخبز والخمر أي لونهما ورائحتهما .. الخ تستمر في الوجود".

وقد أكد الأسقف رغم كل هذا الايضاح أن الكنيسة الروسية الأرثوذكسية أصدرت في سنة ١٨٣٨ ترجمة لأعمال مجمع أورشليم ١٦٧٢ استعملت فيه تعبير الاستحالة الجوهرية لكنها تجنبت تعابير الجوهر والأعراض، وذلك من طريق تحوير النص الأصلي (ص ١١٥). وهذا يعبِّر عن شعور الأرثوذكس بأن فلسفة العصر الوسيط غير قادرة على التعبير عن السر، وأنها تحل مشكلة وتخلق عدة مشاكل لاهوتية وفلسفية. فقد حلَّت مشكلة التعبير وخلقت عدة مشاكل لاهوتية وطقسية وروحية.

الموقف كما نراه على هذا النحو:

أولاً: يعلِّم الآباء بالاستحالة السرية دون تحديد فلسفي.

ثانياً: ينكر علماء الأرثوذكسية أرثوذكسية تعبير الاستحالة الجوهرية.

ثالثاً: وتاريخياً، وكما يعرف كل طلاب اللاهوت في أي معهد أرثوذكسي أن نقطة الصراع بين لوثر وتعليم العصر الوسيط عن الافخارستيا كانت هي تعبير الاستحالة الجوهرية الذي كان لوثر يعلم أنه غير معروف عند اوغسطينوس (وهذه حقيقة) وأن محاولة البحث عن تعبير آخر مناسب كانت الهاجس الدائم عند علماء اللاهوت من الكاثوليك أمثال البرت الكبير وغيره حتى مجمع ترنت[١].

---

(١) راجع بحث الأستاذ James Mc Cue الذي اعتبر وثيقة رسمية في الحوار اللوثري الكاثوليكي والذي نُشر مرتين المرة الأولى في المجلة العلمية Harvard Theological Review وأُعيد نشره في المجلد الأول الذي يضم وثائق الحوار Lutherans and Catholics in Dialogue.

رابعاً: أن الكنيسة الكاثوليكية اصبحت لا تميل لاستعمال هذا التعبير في العصر الحديث وشهادة أي كاهن كاثوليكي درس الأسرار تكفي.

خامساً: لقد أصبحنا في حاجة شديدة إلى تجديد الدراسة عندنا والى أن تدخل القواميس والمراجع اللاهوتية ودوائر المعارف الحديثة في مكتبة الاكليريكية ومكتبات الأديرة. وان توفر كل الامكانيات للكلية الاكليريكية وفي مقدمتها الحرية والضمانات التي كفلها القانون الكنسي والتي تمنع الاساءة والاعتداء على الذين يدرسون لأن هذا وحده هو الذي سوف يجعل الكنيسة القبطية قادرة على الاحتفاظ بسمعتها المجيدة الناصعة وقادرة أيضاً على أن تحتل مكانها في قيادة الكنائس المسيحية الشرقية. اما إذا تعرض الدارسون لإطلاق الاشاعات والاتهامات غير المحددة والسخرية من الدراسة فإن الكنيسة القبطية تعرض نفسها لأن تجد ذاتها وقد أنعدم وجود المتخصصين فيها طالما أن حرية البحث والدراسة غير مكفولة وان الاعتداء على الباحثين يمكن أن يحدث في غيبة التمسك بالقانون الكنسي.

شهادة الخولاجيات الأرثوذكسية لتعليم الاستحالة السرية

سوف نرى بوضوح –كما ذكرنا– كيف غاب تعبير الاستحالة الجوهرية لغوياً ولاهوتياً من الخولاجيات الأرثوذكسية لا سيما الخولاجي القبطي. وهذا الغياب نفسه الظاهر بوضوح في كتابات الآباء يؤكد أن التيار الروحي الشرقي هو تيار روحي غير فلسفي. يقول الخولاجي القبطي:

> "نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر أظهر وجهك على هذا الخبز وعلى هذه الكأس .. باركهما وقدسهما وطهرهما وأنقلهما لكي يصير هذا الخبز جسدك .. ويصير دمك ..".

فالتعبير المتواتر هو "يصير – ينقل". والطقس الشرقي يؤكد دائماً أن الذي يقوم بالاستحالة هو الرب أحياناً الإشارة الواضحة إلى أن الذي يحول هو المسيح كما جاء في القداس الغريغوري:

> "أنت بصوتك وحدك حوِّل هذين الموضعين. أنت الحال معنا هيئ لنا هذه الخدمة المملوءة سراً .. أنت أرسل علينا نعمة روحك القدوس لكي تطهر وتنقل هذه القرابين الموضوعة إلى جسد ودم خلاصنا .. وهذا الخبز تجعله جسداً مقدساً لك".

فالقداس الغريغوري القبطي، وهو قطعة لاهوتية وشعرية فائقة ترتفع الرؤية الروحية فيها إلى ما هو فوق الكلمات وكل اللغات، وهو الحضور السري للمسيح في الإفخارستيا. وهنا يجب أن نقف قليلاً أمام هذه الملاحظات الأساسية:

١– الذي يحول القرابين هو المسيح.

٢– التحول هنا يقع في دائرة الفهم الشرقي؛ لأنه على الرغم من أن كلمة "حول" قد استخدمت إلَّا أن الصلاة تقول بعد ذلك: "أنقل .. هذا الخبز اجعله جسد.."، وهنا طبعاً تحول ونقل وتغيير الخبز إلى جسد ودم المسيح.

٣– وتصل دقة الصلاة في أنها تعيد إلى المصلي صوت المسيح الذي قال خذوا كلوا هذا هو جسدي، وهذا هو نفس الصوت الذي يعطي الخبز والخمر الآن للكنيسة، وهو ما تعبر عنه الصلاة بعد ذلك: "أغرس فينا ذكر خدمتك المقدسة".

ولا بُد أن نفهم أن الذكرى هنا ليست سوى انتقال الخبز والخمر إلى جسد ودم خلاصنا. ومن القداس نفسه يأتي تأكيد هذا المعنى؛ لأنه قبل صلاة القسمة وتوزيع الأسرار يطلب الكاهن القبطي من المسيح قائلاً:

"يا الذي بارك في ذلك الزمان الآن أيضاً بارك.

يا الذي قدَّس في ذلك الزمان الآن أيضاً قدس.

يا الذي قسَّم في ذلك الزمان الآن أيضاً قسم.

يا الذي أعطى تلاميذه القديسين ورسله الأطهار في ذلك الزمان الآن أيضاً يا سيدنا اعطنا وكل شعبك يا ضابط الكل الرب إلهنا".

هنا يعبِّر التراث القبطي عن حضور المسيح، ليس فقط على المذبح كتقدمة، بل كملك وإله ضابط الكل يوزِّع جسده بنفسه كما فعل مع التلاميذ في علية صهيون. هكذا يصبح معنى الذكرى هو الاشتراك في حضور المسيح الذي يفعل بنفسه ما سبق وفعله من قبل عندما وزَّع جسده على تلاميذه.

وإذا كان القداس الكيرلسي هو أقدم القداسات القبطية، فإننا إذا راجعنا الكلمات اللاهوتية الخاصة بالاستحالة، فإنها لا تزيد عن سابقها؛ لأن الكاهن يطلب الروح القدس لكي يحل على الشعب وعلى القرابين: "لكي يتطهرا وينتقلا .. وهذا الخبز يجعله جسداً .. وهذه الكأس أيضاً دماً كريماً للعهد الجديد الذي له".

اذاً لدينا المحتوى السري القديم للاستحالة، والذي تعبر عنه صلاة القسمة: "هوذا كائن معنا على هذه المائدة اليوم عمانوئيل الهنا"، فالمسيح كائنٌ حالٌّ أو حاضرٌ يعلن ذاته في الأسرار ويهب حياته، وهو ما يجعل صلاة القسمة المشهورة للقديس كيرلس عمود الدين تطلب هذا الاستعلان الإلهي: "عند نزول مجدك على اسرارك تُرفع عقولنا لمشاهدة جلالك. عند استحالة الخبز والخمر إلى جسدك ودمك تتحول نفوسنا إلى

مشاركة مجدك". وهنا الاستحالة كعمل يقوم به الروح القدس، إنما يهدف قبل أي شيء آخر إلى أن يحوِّل شعب الكنيسة أيضاً ويرفعه إلى معاينة هذه الحقيقة السرية الفائقة. وهذا هو غاية وسبب إصرار الكنيسة الأرثوذكسية على ضرورة استدعاء الروح القدس القدس لكي يحل على الشعب أولاً، وبعد ذلك على القرابين؛ لأن حلول الروح القدس على الشعب إنما هو تحوُّل الشعب نفسه ودخوله إلى معاينة استحالة الأسرار. وطبعاً لا نحتاج إلى أن نؤكد أن التحوُّل هنا هو تجديد الفكر واستنارة القلب والتي تؤهل الإنسان لكي يفهم كيف صار الخبز والخمر جسد الرب ودمه.

ثانياً: الخولاجي البيزنطي

يعتبر قداس يوحنا ذهبي الفم هو الخدمة الأكثر شيوعاً أكثر من القداسات الأخرى مثل القداس الباسيلي وقداس مار يعقوب، وهو يقول:

> "إننا نقدم لك أيها الآب السماوي هذه الذبيحة الحية الناطقة جسد ابنك الحبيب ودمه الكريم .. نسأل ونطلب أن ترسل من فوق إلى أسفل روحك القدوس علينا وعلى هذه العطايا التي نقدمها وأجعل هذا الخبز الجسد الثمين لمسيحك وما في هذه الكأس الدم الثمين لمسيحك محولاً إياهما بروحك القدوس".

ثالثاً: الخولاجي السرياني

وحسب الطقس السرياني القديم الذي لا زال مستعملاً في الكنيسة السريانية الأرثوذكسية، وهو غير الطقس الكلداني، أو الطقس السرياني الشمالي، تقول الصلوات:

> "إننا يا رب لموتك ذاكرون وبقيامتك معترفون .. من أجل هذا نرفع إليك هذه الذبيحة غير الدموية .. ما أرهب هذا الوقت الذي ينحدر الروح القدس نازلاً من أعالي السموات ويرف ويحل على هذه الإفخارستيا الموضوعة

ويقدسها .. لكي بحلوله يجعل هذا الخبز مانحاً الحياة وجسداً خلاصياً جسد المسيح إلهنا. ويجعل هذه الكأس دماً للعهد الجديد دماً خلاصياً دم المسيح إلهنا".

استخدام كلمة مثال وعلامة ورسم عند الآباء

كان كتاب "شرح أصول الإيمان" للقس واطسن والقس إبراهيم سعيد، هو أول من اقتبس من كتابات الآباء مؤكداً أن الخبز والخمر هما مجرد مثال وعلامة بمعناها المعاصر والذي شاع منذ القرن السادس عشر. وظل هذا الكلام بلا رد أو بحث مثل غيره من قضايا فكرية أُثيرت على صفحات الكتب والمجلات غير الارثوذكسية.

والثابت من أقوال الآباء أنهم استخدموا الكلمات اليونانية واللاتينية التالية:

συμβολον – τυπον – αλληγορων – ομοιωυα

والكلمة اللاتينية *Figura* ولكن لهذه المصطلحات معنى لاهوتي خاص لم يناقَش في الشرق العربي بالمرة، وهو ما سوف نشرحه هنا استكمالاً لما نُشر في مقال مجلة الهدى.

القديس اكليمنضس السكندري:

"عبَّر الربُّ عن تعليمه بمثال أو علامة في إنجيل يوحنا حينما قال: "كلوا جسدي واشربوا دمي"، فعبَّر عن الصورة αλληγορων الواضحة وصفات الإيمان على أن (الإيمان) يُشرب. ووَعَدَ الكنيسة بما يغذيها ويجعلها تنمو وتتحد لتصبح جسداً متحداً مثل اتحاد الجسد بالنفس".

(المربي ١: ٦: ٣٨).

ويشرح اكليمنضس السكندري كلمة صورة على هذا النحو:

"يستخدم الروح القدس كلمة جسد كصورة لأنه بواسطة الروح القدس تم تكوين الجسد أمَّا الدم فهو مثال αινιττεται للكلمة لأنه (الكلمة) مثل الدم المحيي وقد سَكب الكلمة حياته في حياتنا" (المربي ١: ٦: ٤٣).

وطبعاً يمكن للبروتستانت أن يفهموا هذا الكلام كما يروق لهم. لكن الحقيقة الظاهرة عند اكليمنضس وباقي الآباء هي:

١– لا يؤمن الآباء بالهرطقة الخيالية أو الدوستية التي تنكر التجسد، وبالتالي استخدام كلمة علامة أو مثال أو صورة، إنما يعني في النهاية الهرطقة الدوستية.

٢– يشرح اكليمنضس مثل باقي الآباء حقيقة عمل الافخارستيا مؤكداً أنها حياة عقلية، وأنها ممارسة في الواقع بقوله "صفات الإيمان على أنه يُشرب".

مما يؤكد ما سبق وذكرناه هو قول اكليمنضس نفسه حيث يقول إن الدم والجسد إنما يعني "دم الرب له معنيين: المعنى الأول هو الدم الذي في الجسد، وهو الذي سال لأجل فدائنا من الفساد. المعنى الثاني روحي لأننا به قد مُسحنا. وشُرب دم يسوع معناه الاشتراك في عدم الموت؛ لأن الروح القدس هو قوة الكلمة مثلما الدم هو قوة وحياة الجسد" (المربي ٢: ٢: ١٩).

وهنا لا يختلف اكليمنضس عن القداسات الشرقية كلها التي تؤكد على أن الإفخارستيا صعيدة عقلية أو ناطقة أو روحانية وغير دموية، ووجه الاختلاف هو اللغة الفلسفية لا سيما مصطلحات الافلاطونية المحدثة التي تأثر بها اكليمنضس السكندري، والتي تجعل مدلول كلمة صورة أو علامة أو مثال هو الحقيقة الروحية التي تُعلَن وتُعطَي بشكل منظور يدركه الإنسان داخلياً، وهو ما يجعل بعض الآباء يقولون إن أكل الجسد وشرب الدم هو تأمل حياة الكلمة، والتأمل عند الآباء هو رؤية روحانية تُوهَب من الروح القدس وليس مجرد النظر العقلي الذي يعتمد فيه الإنسان على الخيال – كما هو شائع

في العصر الحديث. ونؤكد هذا من كلام اكليمنضس نفسه حيث يقول بكل وضوح:

"إن كلمة علامة أو مثال اليونانية مكونة من مقطعين συμ – Βολον وتعني ما يوضع معاً لكي يظهر المعنى لأن كلمة Βολον أصلاً من الفعل اليوناني Βλεπω أي يرى ويفهم. وهكذا بوضع الخبز والخمر على المذبح نرى في هذه العلامة جسد الرب ودمه. ولذلك ذكرتُ في مقالة مجلة الهدى: "إن كلمة مثال لم تُدرس في الشرق"، وهذه حقيقة تاريخية معروفة، ويؤكد العالم البروتستانتي هرنك أن العلامة في عهد الآباء ليست بمعناها المعاصر ويقول: "ما نعرفه في أيامنا على أنه علامة هو شيء لا علاقة له بما يمثل. أمَّا في زمان الآباء، فإن العلامة تعني الشيء الذي بنوعٍ ما يُعلِن أو يُظهِر ما هو مرتبط به".

.(History of Dogma vol 4:289 – History of Dogma vol 2:144)

ويقول عالم ألماني آخر ***Hagenbach*** أن العلامة أو الرمز هو شيء ظاهر له دلالة روحية داخلية تفهم من الممارسة ومن خلال الصلاة. (History of Christian Doctrines p. 73).

لقد كانت مقالة مجلة الهدى دعوة للبحث، وهذا ما هو مطلوب الآن في الحوار المسكوني، وما هو مطلوب بالأكثر أن تعرف الكنيسة الارثوذكسية تاريخها وتراثها حتى يمكنها أن تتكلم بكل قوة.

العلامة ترتليان:

الذي استخدم كلمة ***Figura*** بمعنى الصورة أو المثال والتي شرحها العالم الانجليزي J. Turner "Journal of Theological Studies" vol VI:596.

"الإفخارستيا طعام سري وتأمل سري. ودم وجسد الرب الكلمة هو

تأمل القوة والجوهر الإلهي. ذوقوا وانظروا كيف أن المسيح هو الرب (مزمور ٣٣: ٨) وهذا قيل عن الإفخارستيا لأن الرب يعطي ذاته للذين يشتركون في هذا الطعام ويأكلونه بطريقة أكثر روحانية فيغذي النفس كما يقول أفلاطون محب الحقيقة. وأكل وشرب الكلمة الإلهي هو معرفة الجوهر الإلهي".

(المتنوعات ٥: ١٠: ٧٦).

وفي نفس الإطار استخدمت قوانين الرسل كلمة ⲥⲙⲟⲧ في الكلام عن جسد المسيح ودمه ويقول النص القبطي "وليقدم الشمامسة الصعيدة إلى الاسقف. وهو يقول الشكر على الخبز لأنه مثال جسد المسيح.

Ⲙⲁⲣⲉ Ⲛⲓⲇⲓⲁⲕⲱⲛⲟⲥ ⲉⲛ ϯⲡⲣⲟⲥⲫⲟⲣⲁ ⲙⲡⲓⲉⲡⲓⲥⲕⲟⲡⲟⲥ ⲟⲩⲟϩ Ⲛⲑⲟϥ ⲟⲩⲱⲓⲕ ⲉⲑⲃⲉ ϫⲉ ⲡⲥⲙⲟⲧ ⲛⲧⲉⲥⲁⲣⲝ).[1]

بل أن القداس الغريغوري القبطي احتفظ لنا بالكلمة اليونانية συμβουλον والتي وردت في النص القبطي:

"ϯⲛⲓ ⲛⲁⲕ ⲉϩⲣⲏⲓ ⲡⲁⲛⲏⲃ ⲛⲛⲓⲥⲩⲙⲃⲟⲩⲗⲟⲛ"

"أُقدِّم لك يا سيدي مشورات حريتي".

وكلمة "مشورات" دخيلة على اللغة العربية، فهي أصلاً سريانية وتعني "علامة أو المثال الظاهر الذي له معنى معين داخلي يُدرك سرياً". ومن الحقائق المعروفة الآن مؤكداً أنها تعني الصفات الظاهرة والحقيقة في الصورة، وليس مجرد علامة أو صورة مجردة. وهذا ما نراه عند ترتليان وهو يوجه الحديث إلى أتباع (مرقيان الغنوسي) قائلاً:

---

(١) النص القبطي الذي نشره Henry Tattam "The Apostolical Constitutions p.62.

"إنه لا يرفض حتى الآن (مرقيان) الماء الذي خلقه الخالق والذي يغسل الله به شعبه (في المعمودية) أو الزيت (الميرون) الذي به يمسحهم الله به أو مزيج اللبن والعسل (يقدم بعد التناول في ليلة عيد الفصح) الذي يغذي به الله أطفاله الصغار، أو الخبز الذي به يجعل جسده حاضراً".

(ضد مرقيان ١: ١٤).

ويقول بعد ذلك: "لو كان جسد المسيح المعلق على الصليب هو جسد غير حقيقي، ولكن الخبز هو ***Figura corporis*** أي صورة أو مثال الجسد" (ضد مرقيان ٤: ٤٠).

هذه اللغة القديمة ذات دلالة هامة؛ لأنها تجيء في مجال الكتابات ضد الغنوسية، وهنا تصبح العلامة شيئاً حقيقياً فيه صفات جسد المسيح الحقيقي كما يقول ترتليان بعد ذلك (ضد مرقيان ٣: ١٩ – جسد القيامة ١٧ – ضد مرقيان ٤: ٢٢).

فكيف نخاف من دراسة ومناقشة تراثنا القديم، وما هو الخطأ أو الهرطقة في اعتبار الجسد والدم مثالاً أو علامة على جسد المسيح؟ هل يمكن لنا أن نتناول بدون وضع الخبز والخمر على المذبح، وهي علامات أو مشورات حرية الإنسان حسب تعبير القداس الغريغوري؟ .. ألا يدلنا الخبز والخمر على أن الكلمة يؤكل فعلاً، وهذا هو هو المعنى الذي أدركه علماء اللاهوت البروتستانت في العصر الحديث وسجَّلوه في كتبهم التي أشرت إلى بعضها في الفقرة السابقة؟

ما هو المقياس الصحيح لإنكار أن الجسد والدم على المذبح هو جسد ودم حقيقي لربنا يسوع المسيح؟ هل هو استخدام كلمة مثال؟ بكل تأكيد لا، وإنما هو اعتبار أن المسيح غير حاضر بالمرة في ذبيحة الإفخارستيا. المحتوى أهم من الكلمات ودائماً المحتوى يسبق الكلمات؛ لأنه قبل أن يصبح نصاً يكون بمثابة رؤية عقلية كامنة في عقل الانسان.

ولو أن كلمة علامة أو مثال أو صورة لها أي مدلول خاطئ، أو ينكر أن

الإفخارستيا هي جسد ودم ربنا يسوع، ما كانت الكلمة قد ظهرت في النصوص القديمة التي سوف نقدم بعضاً منها.

قداس سرابيون:

"أقبل هتافهم عندنا نقول: قدوس قدوس قدوس رب الصباؤوت السماء والأرض مملوءتان من مجدك العجيب يا رب القوات املأ هذه الذبيحة بقوتك وبمشاركتك لأننا إليك نقدم هذه الذبيحة الحية هذه التقدمة غير الدموية".

إليك نقدم هذا الخبز، مثال το ομοιωμα مثال جسد ابنك الوحيد. هذا الخبز هو مثال الجسد المقدس.

ونقدم اليك هذه الكأس، مثال الدم..." (الترجمة العربية صدرت في سلسلة أقدم النصوص المسيحية تعريب الأب جورج نصور – ١٩٧٥ ص ٨٨ – ٨٩).

ما معنى كلمة مثال؟

شرح هذه الكلمة الأسقف اليوناني رودبولوس في رسالة الدكتوراة المقدمة لجامعة اوكسفورد عام ١٩٦٥ على النحو التالي:

الخبز هو مثال جسد المسيح ليس بالمعنى الحديث، وإنما بالمعنى الشائع عند الآباء وهو:

أ– حقيقي بسبب انكار الغنوسيين للتجسد.
ب– يؤكل للحياة والخلود والمغفرة والشفاء من الأمراض.
وبالتالي تؤكد الكلمة اليونانية تطابق الأصل، الجسد على الخبز أو الخمر على

المثال. هذا التطابق تؤكده فاعلية الإفخارستيا وحقيقة أن المسيح الإله المتجسد حاضر بجسده ودمه على المذبح.

القديس كيرلس الاورشليمي:

استخدم القديس كيرلس كلمة τοπον في الكلام عن الافخارستيا "وحسب الانجيل جسده يحمل شكل الخبز τυπον εφερεν" (عظة ١٣: ١٩).

أمَّا في النص المشهور، وحسب ترجمة الأستاذ حبيب جرجس "لأنه برسم الخبز يعطي لك الجسد وبرسم الخمر يعطي لك الدم، لكي بتناولك من جسد المسيح ودمه تصير متحداً معه جسداً ودماً" (عظة ٢٢: ٣) ترجمة اسرار الكنيسة السبعة الطبعة الأولى ١٩٣٤ ص ٩٤. وطبعاً كلمة رسم τυπω هي شكل أو حسب ترجمة الأب جورج نصور ص ٣٩٩ – سلسلة أقدم النصوص المسيحية (١٩٨٢).

ما معنى هذه الكلمة؟

ليس المعنى الذي ذكره واطسون وإبراهيم سعيد في كتاب "شرح أصول الإيمان"، وهو الرمز، وإنما المعنى الشائع في كتابات الآباء وهو حسب دراسة رودبولووس:

١– صار جسد المسيح طعاماً يؤكل في الإفخارستيا، وهنا الجسد هو الذي يوصف بأنه مثال أو شكل أو رسم لأن كيرلس وصف الجسد وليس الخبز بأنه τυπω فالمسيح جعل جسده طعاماً حسب كلمات يوحنا أي جعل جسده خبزاً (عظة ١٣: ١٩).

٢– رسم أو شكل (في عظة ٢٢: ٣) يعني ما هو محسوس وظاهر ومرئي.

نصوص أخرى عند الآباء لها نفس المعنى نكتفي بالإشارة اليها:

– القديس غريغوريوس النزينزي (مقالة ٨: ١٨ مقالة ١٧: ١٢).

– عظات مقاريوس المصري عظة ٢٧: ١٧ مجموعة الآباء اليونانيين مجلد ٣٤: عامود ٧٠٥.

– القديس امبروسيوس حيث استخدم كلمة Figura في ذات المعنى السابق الأسرار ٤: ٢٠، ٢١.

– القديس اوغسطينوس ضد المانيين ١٢: ٣ شرح مزمور ٣، شرح العقيدة المسيحية ٣: ٢٤ – ضد الذين يقاومون الناموس والأنبياء ٢: ٣٥ – الرسالة رقم ٩٨: ٩.

ضرورة العودة إلى التراث الشرقي

لقد بدأت هذه العودة في جميع مدارس اللاهوت الأرثوذكسية منذ نصف قرن على الأقل، واستيقظ الغرب نفسه على النور الذي يشع من كتابات الآباء. كان لاهوت العصر الوسيط هو السبب الأول والأخير في ظهور حركة الإصلاح في أوروبا، وكانت حركة الإصلاح في حد ذاتها دعوة إلى العودة إلى تراث الآباء، وهو ما يؤكده كالفن ولوثر بشكل خاص. وإذا كانت حركة الإصلاح قد خرجت عن خط الآباء في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إلَّا أن علماء البروتستانتية يعودون الآن إلى نفس الخط في دراسات العهد القديم والجديد، وفي مقدمة هؤلاء العلماء اللوثريون مثل اوسكار كولمان ويواقيم يرمياس، وصارت الليتورجية الشرقية هي أحد المصادر الأساسية التي يأخذ منها علماء اللاهوت الصيغ اللاهوتية الخاصة بالعقيدة المسيحية. أمَّا في مجال الحياة الروحية، فقد نشرت الجامعات مجلدات ضخمة لآباء البرية ووصلت مجموعة الفيلوكاليا ١٣ مجلداً تُرجم منها أربعة فقط إلى اللغة الانجليزية. وقامت الجامعة الكاثوليكية في أمريكا بترجمة كتابات الآباء التي لم تُترجم من قبل ونشرت حتى الآن ٧١ مجلداً كان آخرها عظات العلامة

أوريجينوس على سفر التكوين والخروج. أمَّا جامعة السوربون فقد نشرت حتى الآن ٢٥٥ مجلداً في السلسلة الفرنسية *Soarces chretiennes* وكلها لآباء الكنيسة. وهذا يعني أن نهضة شاملة تعم مدارس اللاهوت الارثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية.

هذه النهضة نحن في حاجة ماسة إليها لأن ما لدينا من تراث الآباء العقيدي والروحي هو قليل جداً ولا يكفي.

ولكن إذا كان مصير الدارسين من أجل خدمة الكنيسة في مصر هو الهجرة وعدم البقاء في مصر ومطاردة كل مَن يُترجم ويبحث، فمن ذا الذي سوف يُقدِم على سلوك هذا الطريق بما فيه من عدم أمان؟ أو مَن الذي يجرؤ على سلوك هذا الطريق غير المأمون العواقب، فالنهاية معروفة: إمَّا الكهنوت، وإمَّا الهجرة، وإمَّا الاتهامات. والمثال المؤلم الذي أُقدمه كنوع لما يمكن أن يحدث لمن يسلك طريق الدراسة والبحث هو نيافة الأنبا غريغوريوس وما أحاط به من مشاكل، يكفي لأن يؤكد أن حرية البحث والدراسة غير مكفولة وما أصاب الاكليريكية ومعهد الدراسات القبطية هو موضوع يجب أن يُطرح للدراسة والبحث لتحديد كيفية تجديد هذه المؤسسات وإعادتها إلى دورها العلمي.

أمَّا في المجال العقيدي نفسه، فإن العودة إلى تعليم الآباء يكفي للقضاء على عدة مشاكل عقائدية نشأت عندنا تحت تأثير اللاهوت الغربي العقلاني، وفي مقدمة هذه المشاكل العجز عن تقديم شرح بسيط روحي لعقيدة الثالوث ووحدانية الله. وفي موضوع الأسرار يكفي أن أشير إلى أن ذبيحة الإفخارستيا كانت تفهم في الغرب على أنها كسر وتوزيع الجسد والدم، أمَّا حسب الآباء فالذبيحة هي: الصلوات وقراءة كلمة الله والاعتراف بالإيمان وحلول الروح القدس وتوزيع الأسرار. هذا ما نراه في الخولاجيات وفي كتابات الآباء أنفسهم، وفي مقدمة هؤلاء ذهبي الفم وكيرلس الكبير. وهذا يقضي تماماً على فكرة ثنائية الذبيحة التي سادت منذ مجمع ترنت، أي ذبيحة الصليب وذبيحة القداس، ويعود بنا إلى الذبيحة الواحدة التي قُدِّمت مرة واحدة وإلى الأبد.

وسوف تفتح دراسة الآباء فهم الطقوس الكنسية، وشرح ما هو غامض منها، وسوف تشرح علاقة الطقس بالقانون الكنسي، والقانون الكنسي بالحياة الروحية والعقيدة.

أقول بكل ألم أن كل هذا غائب تماماً، والدليل على ذلك هو ما صدر عندنا من كتب ودراسات في العشرين سنة الماضية. هذه الدراسات تعلن بكل وضوح مقدار معرفتنا بتراث الكنيسة، وهذه ليست إهانة بالمرة، وإنما هي الحقيقة التي تطالبنا بأن نعمل كل ما في طاقتنا لترجمة الآباء إلى اللغة العربية أو تدريس الآباء بالانجليزية أو الفرنسية في الكلية الاكليريكية وتقديم جرعة قوية مناسبة من اللغة اليونانية تساعد الطلبة على دراسة الآباء.

صاحب القداسة البابا شنودة الثالث.

أيها الآباء الموقرين والأخوة والأخوات.

إن مسئولية التعليم في الكنيسة الارثوذكسية قائمة على دعامتين:

أولاً: الحياة الروحية المقدسة التي لا تظلم ولا تشهِّر بأحد ولا تظن السوء وإنما تعطي لكل ذي حق حقه حسبما حددت القوانين الكنسية.

ثانياً: التقليد الكنسي، وهو الكتاب المقدس والآباء.

وإذا توفر لنا ذلك، فإننا في أشد الحاجة إلى مناخ الحرية الفكرية دون خوف من الاتهامات، ومسئولية القضاء على الشائعات والشوشرة إنما هي مسئولية الكل؛ لأن ذلك وحده هو الذي يخلق المناخ الروحي النقي الذي يتيح لنا حرية البحث والدراسة واسترداد التراث القبطي واليوناني والعربي وتقديمه للأجيال التالية حتى تنشط الحياة الروحية والفكرية.

إنني أطالب بغلق ملفات الاتهامات؛ لأن الاستمرار في هذا الاسلوب سوف يحطم الكثيرين الذين كتبوا ونشروا بحسن نية وبرغبة صادقة في الدراسة والبحث .. وليس لدينا حتى الآن من هو أريوس أو نسطور أو غيره.

لقد سجَّلتُ بعض ما لديَّ لأنني أثق في الأيدي الأمينة والنفوس الطاهرة، وبالكنيسة التي وَلَدَت لنا حبيب جرجس، وعريان مفتاح، وميخائيل مينا وغيرهم والذين أدُّوا دورهم حسبما أُتيح لهم من معرفة وبغيرة مقدسة.

لقد دفعني إلى الكتابة جو الشائعات والاتهامات التي أُطلقت في السنوات العشر الماضية .. ويؤسفني أن أقول إن اطلاق الشائعات هو المرض المصري السريع الانتشار الذي أدرك الكنيسة. لكن ثقتي كبير في النفوس الطاهرة التي سوف تنشر الطهارة وتطالب بالتمسك بالتقليد الكنسي.

قداسة البابا المعظم الأنبا شنودة.

كم كان بودي ألَّا أكتب ما كتبت في هذه الرسالة .. كان بودي أن أقول كل محتوياتها في جلسة مغلقة أو غير مغلقة كما ترون قداستكم .. لكن إزاء الجهود التي بذلتها وبذلها الكثير من الأساقفة والأراخنة وأبناء الكنيسة المخلصين للسماح لي بمقابلتكم والتي باءت بالفشل، لم يكن أمامي للتعبير عن رأيي وعما بداخلي من ألم وآمال سوى هذه الصفحات.

أرجو أن تتفضلوا قداستكم بقبول خالص محبتي واحترامي راجياً لكم كل توفيق من الله.

ابنكم المحب

جورج حبيب بباوي

صورة لأصحاب النيافة المطارنة والأساقفة والآباء الكهنة وأساتذة الكلية الاكليريكية والشخصيات العامة.